الفصل الثاني

الفرنجة ودولهم

الدولة الميروفنجية:

يعد بعض المؤرخين أن أهم حدث كان قد نجم عن تاريخ هجرة الشعوب الجرمانية وغزواتها لأراضي روما هو قيام دولة الفرنجة ، ذلك أنها الدولة الوحيدة التي كتب لها البقاء والاستمرار ضمن أراضي روما ، ولم تلق مصير دول الوندال والقوط الشرقيين ثم الغربيين الذين قضى على ممالكهم البيزنطيون ثم المسلمون ومما يذكر أن قبائل الفرنجة كونت بين أنفسها في القرن الثالث نوعا من التحالف البدائي،لكن مظاهر قوة هذا الحلف أخذت تظهر في القرن الخامس وكان أهم كتل هذا التحالف كتلتان عرفتا باسم الفرنجة البحريون والفرنجة البريون ، وفي القرن الرابع كان قد تم إستقرار هاتين الكتلتين داخل الأراضي الرومانية ، ولم تكن القبائل الفرنجية آنذاك تكون مجموعة قومية أو قبائل أمة واحدة لقد كانت هذه القبائل مجموعة كتل متفرقة متباينة في كثير من الجوانب ، والأمم الجرمانية وجدت بعد قيام دولها وليس قبل ذلك ونسمع عن قبائل الفرنجة لأول مرة حينما حاربهم الأمبراطور الروماني جوليان (٣٦١ ـ ٣٦٣ م) ونراهم بعد ذلك يقاتلون ضد مصالح الأمبراطورية أو لحسابها ، ونجدهم فيما بعد يتعاونون مع جيوش الأمبراطورية والقوط للتصدي للهون وحماية غاليا من أتلا وقواته وعقب هذا الحادث استقرت هذه القبائل في أراضي غاليا فصارت كلها قبائل بربرية بشكل فعلي .

وكان لكل قبيلة زعيمها الخاص بلقب من أصل روماني يعني ملك ، ومن بين العديد من الزعماء كان واحد عرف باسم جليدريك ، وكانت منطقة نفوذه هي منطقة الحدود الحالية بين بلجيكا وفرنسا ، وحين وفاته سنة ٤٨١ م خلفه في منصبه ابنه كلوفيس (٤٨١ ـ ٥١١ م) الذي يعد المؤسس الحقيقي لدولة الفرنجة التي عرفت باسم الدولة الميروفنجية ويحسن قبل الحديث عن دولة كلوفيس وتوسعها أن نذكر أن الفترة الواقعة مابين (٥٠٠ ـ ٩٠٠ م) في تاريخ أوربة الغربية تعد فترة تحول من الحضارة الرومانية ومما يمكن دعوته بالحضارة الجرمانية إلى حضارة العصور الوسطى ، ففي خلال هذه الفترة استقرت الشعوب الجرمانية وطورت مؤسساتها ، وصارت عاداتها السالفة عبارة عن قواعد قانونية ، وبدلا من حال كانت فيه التقنية الزراعية بدائية جدا لشعوب نصف بدوية نصف مستقرة طورت الشعوب الجرمانية زراعتها لأن اقتصاد مؤسساتها وحكوماتها اعتمد كما سبق وذكرنا على الأرض ومنتجاتها الزراعية ، وخلال هذه الفترة اختفت الوثنية مع العقيدة الآريوسية من بين صفوف الشعوب الجرمانية وصارت الشعوب جميعا كاثوليكية أو بالأحرى رومانية كاثوليكية .

وكان الشكل الأساسي للحكم في هذه الفترة مادعاه المؤرخون باسم الحكومات الجرمانية ، وعلى الرغم من أن الممالك ونظمها في معظم بلدان أوربة عاشت قصيرا إلا انه كتب لها الاستمرار في انكلترا وبلدان اسكندنافيا وغاليا ، ونجد في النظم الجرمانية انه كانت أهم وظيفة للزعيم أو الملك الجرماني قيادة شعبه في الحرب ، وكان من حق الملك دعوة كل فرد قادر على حمل السلاح للانخراط تحت رايته ، وكان الملك الجرماني يتم اختياره لكن غالبا مايتم الاختيار من بين أفراد اسرة زعامة ملكية واحدة ، ولقد اعتقدت الشعوب الجرمانية وقبائل الأنكلوسكون أن ملوكها قد انحدروا من صلب أحد الآلهة الجرمان ولذلك عدت الأسرة المالكة الجرمانية أن حقها في الحكم محصور لها دون سواها وعد الملوك الجرمان أن واجباتهم هي القيادة في الحرب والاشراف على رعاية بعض

الاحتفالات والتقاليد وفيما عدا ذلك كان الملك يصرف وقته في تجميع الذهب والفضة والمجوهرات ومعاشرة النساء الجميلات بدون قيود زواجية أو عددية ،ومعاقرة الخمر وأكل اللحوم بشكل عظيم ومقادير هائلة .

وصحيح أن دراسة الممالك الجرمانية ونظمها أمر له شأنه ، إلا أننا سنقتصر هنا على دراسة مملكة الفرنجة ثم ممالك انجلترا لأنها قد كتب لها الاستمرار والبقاء الفعال .

وبعدما غدا كلوفيس زعيم الفرنجة البحريين ، أخذ بالتوسع في غاليا فاستطاع في سنة ٤٨٦ م الاستيلاء على منطقة سواسون لكنه برغم توسعه وتأسيسه لمملكة مستقلة فعلية ظل يعد نفسه موظفا في خدمة الأمبراطور وينوب عنه في حكمه لمنطقته ، ونلاحظ أن جميع الذين حكموا الدولة الفرنجية بعد كلوفيس كانوا جميعا يطبعون رأس الأمبراطور الروماني على نقودهم وبقيت في أيام كلوفيس الادارة تسير حسب النظم الرومانية السالفة لذلك يمكن عد كلوفيس من بعض الوجوه مجرد خليفة للحاكم الروماني لغاليا ، ورغم أن الماضي الروماني لم يتم قطعه بقيام مملكة الفرنجة ، إلا أن هذه المملكة تأثرت قليلا بالفكر السياسي الروماني ، وكما سلفت الاشارةفقد اعتقد ملوك الأسرة الميروفنجية أنفسهم بالانحدار من أحد الأرباب : ولقد كانوا يطلقون شعورهم ويجعلونها تتدلى على اكتافهم كإشارة إلى نسبهم الرباني ، ولم يكن الملك وراثيا من اب إلى ابن بل كان وراثيا ضمن العائلة المقدسة ، وبعد وفاة الملك كان يتم انتخاب ملك جديد ، ومن ثم يتم تتويجه ، وكانت اهم عملية في احتفالات التتويج حمل الملك المنتخب على ترسة المقاتلين كدليل على الاعتراف بالانتخاب ، وكانت المملكة تعالج قضاياها كممتلكات خاصة بالعائلة المالكة .

وتميزت حركة الفرنجة في ظل كلوفيس بالتوسع الاقليمي والحربي والسياسي ، لذلك يرى بعضهم في كلوفيس فاتحا عسكريا ومؤسسا لمملكة وليس قائدا لشعب مهاجر ودخل كلوفيس في صراع

ضد بقية الشعوب الجرمانية في إيطاليا وسواها وعلى حساب ممتلكاتها توسع ، ولعل من حسن حظ الفرنجة أن مواطنهم الجديدة في غاليا ظلت على صلة وثيقة بمواطنها لما قبل الهجرة ، لذلك تلقى الفرنجة روافد دموية دائمة فأمكن لهم الاستقرار والبقاء الأمر الذي لم يحدث لبقية الشعوب الجرمانية . وكان كلوفيس سياسيا بارعا ، وقد قام عام ٤٩٦ بالاقدام على اعتناق المسيحية ، لكن ليس حسب المذهب الآريوسي مذهب بقية الشعوب الجرمانية إنما حسب العقيدة الكاثوليكية الرومانية ، وبذلك تميز ملوك الفرنجة عن غيرهم من ملوك الشعوب الجرمانية ، فكانوا ابرياء من كل هرطقة ،إلا ان اعتناقهم للكاثوليكية قد تم بهداية ربانية نظرا لتميزهم عن سواهم ، وأوجد هذا في نفوسهم شعورا داخليا بالتفوق وبأن لهم رسالة سماوية لأن ملوكهم من أصل سماوي ، وحين فعل ملوك الفرنجة هذا فتبنوا مثل هذا الراي شابهوا بقية ورثة الأمبراطورية:الأباطرة البيزنطيين وخلفاء الدولة الاسلامية الذين امنوا بتأييد السماء لهم ، بعدما قامت باختيارهم ، ولاشك أن هذه المشاعر كانت واحدا من اهم المحركات على قيام حركة التوسع الفرنجي ، ووراء دور الفرنجة الكبير في صنع تاريخ أوربة في العصور الوسطى في أوربة الغربية .

إن اعتناق كلوفيس للمذهب الكاثوليكي قد جعله يظهر بمظهر المدافع عن المسيحية الشرعية ليس في مملكته بل في جميع اوربة الغربية ثم العالم المسيحي ، وعنى هذا قيام نوع من التحالف بين الفرنجة والرومان والتالف بين البابوية وملوك الفرنجة ، وهذا التالف التحالفي كان له آثار بعيدة حيث حظيت شعوب اوربا الكاثوليكية بود ملوك الفرنجة ورغبت في الدخول في طاعتهم ، وكان لهذا اثاره على علاقات مملكة الفرنجة مع غيرها من الممالك الجرمانية حيث ولد العداء والصراع وكانت الحروب غالبا لمصلحة الفرنجة على حساب الألمان والقوط الشرقيين والغربيين.

وعندما توفي كلوفيس سنة ٥١١ م قسمت مملكته بين أولاده

الأربعة وهكذا ظلت دائما مقسمة ، لكن وجود فكرة للملك أنه حق محصور ضمن الأسرة المالكة كلها خفف من مضار التقسيم هذه وساعد على استمرار أعمال التوسع الفرنجي ولم يمنح الدولة والأقسام حدودا دائمة معترف بها ، وكانت أهم دول المملكة الميروفنجية هي : دولة اوسترازيا وقامت ممتلكاتها على طرفي نهر الراين ، وعرفت الأراضي الواقعة في شمال غاليا باسم دولة نوستريا ، في حين عرفت الدولة المهمة الثالثة باسم برغنديا واوكتين ، ولقد كانت المؤثرات الجرمانية اقوى في الدولتين الأوليتين بينما كان هذا المؤثر ضعيفا في الدولة الثالثة حيث نتيجة لهذا ظلت لاتينية الموارث والمؤثرات .

ومع اعتناق ملوك الفرنجة للمسيحية الكاثوليكية وقيام علاقات جيدة بينهم وبين المؤسسات الدينية ، فان هؤلاء الملوك كانوا غير متدينين وجل ماكان رجال الكنيسة يطمعون منهم هو تطبيق بسيط لبعض القواعد والاحكام الدينية .

وعلى سبيل المثال نجد أن الزواج الشرعي أو شرعية الزواج امر لم يكن له أي وجود أو معنى لدى ملوك الفرنجة ، فكان الملك الميروفنجي ورجال بلاطة كل منهم يعاشر ماشاء من النساء ولايهتم بشرعية العلاقات ومسائل شرعية ولادة الأولاد ، ولهذا نجد كل ماكانت الكنيسة تطمع به أن يعترف الملك بواحدة من النسوة زوجة شرعية ، ثم يعاشر ماشاء من النساء بعد ذلك ، وطبعا لم يكن الملك يعارض فرض الزواج الكنسي على رعاياه ، أما عليه وعلى أسرته فلا ، يتزوجون ويطلقون كل حين وحسب كل رغبة، وحيث وجدت أعداد كبيرة من النسوة المطلقات واليتامى من الفرنجة فقد اخذت الكنيسة بالعناية بهؤلاء ولم يعارض ملوك الفرنجة ذلك ، لهذا صار للكنيسة وظائف اجتماعية في داخل مجتمع الدولة الميروفنجية .

ولم يمض على قيام دولة الفرنجة ثمانون عاما حتى ضعفت وتوقفت عن التوسع والنمو وذلك بشكل مفاجيء ، وعاشت طورا من الحروب الداخلية الأهلية ، وقد استمرت حالة الفوضى هذه قرابة

قرن ونصف القرن وظهر في هـذا الوقـت ملوك مـن اسرة كلوفيس يدعون عادة بالملوك الذين يملكون ولايحـكمون ، وفي الحقيقـة كان الملوك الذين تولو العرش من ذوي الطاقات الكبيرة انما الغـريب ان حياة كل منهم كانت قصيرة لذلك كثر عددهم ، وقل تأثيرهم ، ولهذا تغلب على الحكم في هذا الوقت رجال البلاط والنبلاء ، وأخذ النبلاء يسيرون شؤون كل دولة ويتحكمون بها مع رجال الكنيسـة والدين ، ونالت الكنيسة الكثير من الصلاحيات ومـزيدا مـن الاسـتقلال عن السلطة الزمنية ، حتى غدت شبه مستقلة ، واحتـكر كل نبيل مـن النبلاء ملكية من الأرض خاصة استقل بها ، وصار من غير الممـكن بالنسبة للتاج فرض الضرائب على ممتلكات الكنيسة والنبلاء .

لقد صارت السلطة مع الزمـن بيد أحـد النبـلاء الذي كان يتـم اختياره في البلاط وحجابة الملك وذلك في سبيل منع الملك من الحـكم وبالتالي نزع امتيازات النبـلاء والاضرار بمصـالحهم وفي البـداية كانت هذه الوظيفة متـواضعة لأن مهـام صـاحبها كانت مجـرد الاشراف على خدم القصر وموظفيه ولكنها تطورت مع الأيام وصار صاحبها هو صـاحب السـلطة الفعلية في الدولة الميروفنجية يشرف على جميع ادارات الدولة وعلى النفقات وتوزيع الجباة وحتـى قيادة الجيوش المحاربة، ومنذ سنة ٦١٤ م تعاقب على هذا المنصـب عدد من النبلاء عن طريق الوراثة فأصبحت السـلطة حصرا في اسرتهـم ومنذ سنة ٦٣٩ يوم وفاة اخر الميروفنجيين الكبـار وهـو داغوبيرت الأول صار تاريخ هذه المملكة واقسامها الثـلاث مـرتبطا بـرؤساء البلاط ، وكان رئيس البلاط ايام هذا الملك اسمه بيبن لاندن ، وبعد وفاته حاول كل مـن ابنه ثـم ابـن ابنه (أي حفيده) الغـاء الملكية الميروفنيجية فأخفقا وقتلا ، وقـام صراع وخـلال عمليات الصراع كان النصر مؤخرا من نصيب دولة اسـترازيا فبـرز رئيس بـلاطها الذي عرف باسم بيبن الثاني وهـو ابـن بنت بيبـن الأول وصـار مسؤولا عن بلاطي استرازيا ونوسترا وعقب وفاته برز كما سـنرى ابنه غير الشرعي شارل مارتل سنة ٧١٤ م وأخذ مكانه وسـنتحدث فيما بعد عن اعمال شارل مارتل التي ادت الى توحيد مملكة الفرنجة

وبـالتالي الى انقـراض الدولة الميروفنجية وقيام دولة جـديدة حلت محلها وهي الدولة الكارولنجية .

obeikandl.com

حضارة الدولة الميروفنجية

الحياة الاقتصادية

إن مانملكه من معلومات عن طبقات المجتمع في ظل الدولة الميروفنجية قليل جدا فالذي هو متوفر يتعلق بالأسرة المالكة وطبقات النبلاء والأساقفة ورؤساء الكنائس والديرة ، وقد ملك كل من هؤلاء املاكا واسعة للغاية اختلفت الى حد كبير عن طبيعة القرية او المؤسسة الزراعية أيام الامبراطورية الرومانية ، وقد زرعت هذه الأملاك من قبل أجراء أو وكلاء كانوا انصاف احرار ، اي انهم لم يكونوا من اقنان الأرض ، ولكنهم ماكانوا يملكون الحق في التحرك من المزارع التي يعملون بها ، وقد ملك كل واحد من الأجراء كوخا حقيرا عاش به مع اسرته ، وذلك بالاضافة الى قطعة صغيرة من الأرض زرعها واعتمد على انتاجها في نفقات عيشه مع أسرته ، وقد أمضى الأجير معظم الوقت في العمل في أرض سيده الكبير دونما مقابل ، ويبدو أن معظم هذه الممتلكات والمؤسسات الزراعية كانت ذات أصل روماني ربما كانت تعود الى بعض اعضاء مجلس الشيوخ الروماني أو كانت من أملاك التاج الامبراطوري لكنها مع الأيام غدت في حوذة النبلاء من الفرنجة ، كما اقام رجال اخرون من النبلاء مع رجال الكنيسة والديرة مؤسسات مماثلة .

ويمكننا أن نلاحظ وجود نمطين من القرى لدى الفرنجة : نمط سكانه رجال احرار يملكون جميعا الأرض ويزرعونها بطريقة تعاونية تحت إدارة وتوجيه مجلس قروي أما النمط الثاني فقد كان عبارة عن قرية ملكها أحد النبلاء الفرنجة وسكنها مع أتباعه الذين كانوا في البداية رجالا لكن مع مرور الزمن اخذوا يتحولون الى حال

الرجال النصف احرار الذين قاموا بادارة المزارع الرومانية القديمة وزراعتها ، وعلى الرغم من استمرار النمط الروماني القديم في الزراعة وقيام مؤسسات زراعية على الطريقة نفسها فقد ظل في المجتمع الميروفنجي أعداد لابأس بها من الناس الأحرار ذوي النشاطات الاقتصادية المختلفة والأوضاع الاجتماعية المتباينة ، وكان هناك مزارعين صغار يملك كل منهم مزرعة يديرها بنفسه ويكاد انتاجها يكفيه مع اسرته ، وكما كان هناك مزارع متوسطة الحجوم كان أصحابها يستعينون بعدد من الأجراء ، وقد بلغ عددهم عشرون أحيانا وكان هناك أناس لايملكون أرضا لكنهم كانوا يعيشون بشكل مرضي ، فقد جرت العادة أن تقوم الكنيسة واحيانا بعض الملاك الكبار بمنح أحد الناس قطعة من الأرض صغيرة يقوم باستغلالها لنفسه واسرته ، وأحيانا قد تكون الأرض كبيرة فيستخدم اجراء للعمل بها .

وكان هذا المقطع يوافق في عقد الاقطاع على ان يدفع اجرة للأرض التي أعطيت له لاستغلالها ، وكانت الأجرة إما كمية من المنجزات أو عبارة عن خدمات محددة ، وكان المقطع يقسم عند صنع العقد بينه وبين المانح يمينا بالولاء والاخلاص لهذا الملاك الكبير ويعاهده على أن يوقف أو يحبس نفسه له ولخدمة مصالحه ، وبعبارة أخرى يقسم على أن يصبح رجلا من رجاله وتابعيه ، وحصل ملاك الأراضي بواسطة هذه الطريقة على أتباع مخلصين وضمنوا في الوقت نفسه أراضيهم ، وقد استخدم في عقود استغلال الأرض حسب هذه الطريقة عدد من المصطلحات كان من أشهرها سيد ومسود أو مولى وتابع .

ومن الملاحظ أن الحضارة زمن الميروفنجيين استمرت في الانحدار في غاليا ، ولم تتوقف عن متابعة السير في هذا المنحى الذي صارت فيه منذ القرن الثالث ، إنما الآن سارت بسرعة أكبر من ذي قبل ، وكان الفرنجة في الدرجة الأولى رجال حرب ولم يكونوا تجارا ، وكان اهتمامهم بالحياة المدنية في الأرياف وسواها ضعيفا

أو منعدما ولم يهتم ملوكهم بالتجارة ولم يعملوا على تشجيعها لذلك اهملوا صيانة طرق القوافل ولم يرمموا الجسور والمعابر ولم يهتموا بمسائل الأمن على الطرق كما لم يقدموا اية ضمانات لحماية التجارة والتجار ، وذلك أن الملك الميروفنجي لم يفكر مطلقا بأن مثل هذه الأعمال هي من اختصاصاته وواجباته .

لكن لم تمت التجارة ضمن المملكة الميروفنجية تماما بل استمر بعض العمل التجاري في بعض الموانىء والمدن الساحلية القديمة ، انما هذا انحصر فقط في أجزاء من السواحل وانعدم العمل التجاري تماما في داخل اراضي المملكة ، ومع نهاية عصر الدولة الميروفنجية كانت غاليا قد أصبحت بلدا زراعيا ليس له اقتصاد قومي بل قام فيه اقتصاد اقليمي قوامه الزراعة المحلية الانتاج والمحلية الاستهلاك ، رقد كان هناك قليل جدا من المال للتعامل به ، وانعدمت السيولة النقدية او كانت لذلك كان التجار الذين غامروا وسافروا ندرة .

الحياة الفكرية والفنية:

لم يكن انحطاط المدن وشلل الحياة الاقتصادية في العصر الميروفنجي وقساوة الطباع لتؤلف وسطا موائما لتفتح الثقافة وازدهارها ، ولكن لم يختف كل اثر للثقافة القديمة بغزو البرابرة لغاليا ، فقد بقيت في جنوب غاليا وفي المملكة البرغندية بعض مدارس النحو والبلاغة مفتوحة خلال الثلث الأول من القرن السادس ، واستمرت الثقافة القديمة حية في أواسط العائلات الارستقراطية الكبرى حتى منتصف القرن السابع ، وكان الاساقفة الذين يرجع أصلهم الى الطبقة الارستقراطية محافظين على الثقافة الكلاسيكية وقادرين على نظم الاشعار وتطبيق البلاغة التقليدية خلال القرن السادس بأكمله ، واذا كانت الارستقراطية الفرنجية في غاليا الشمالية قد رفضت قبول الثقافة الكلاسيكية في مجملها، وخاصة الشعر والبلاغة، فقد احتفظت برغم ذلك ببعض الجوانب

العملية منها كالقوانين المكتوبة واللغة اللاتينية ، الا ان هذا لاينفي أن المستوى الثقافي والفكري في العصر الميروفنجي لم يتوقف عن الانحطاط والتردي ، وخير مثال على ذلك كتابات قصص حياة القديسين التي أصبحت الشكل الرئيسي الأدبي فقد كان مؤلفوها يطنبون في تقريظ الفضائل نفسها ورواية المعجزات ذاتها ، واخذ الكتاب ، من مؤرخين وادباء يلجأون الى الكتابة باللاتينية العامية أو بلاتينية مليئة بالأخطاء مثل المؤرخ غريغوار اسقف تور الذي وضع كتاب « تاريخ الفرنجة والذي هو عبارة عن مجموعة من القصص لايربط فيما بينها فكرة موجهة ، وكانت قصائد الشاعر فورتوناً برغم تفوقها على أشعار معاصرية ، تتصف بالتصنع والزيف.

ولم يبق سوى القليل جدا من الأوابد التي انشئت في عصر الميروفنجيين وقد حاول مهندسوها اتباع تقاليد اسلافهم ـ الغاليين ـ الرومانيين ولكنهم لم يقيموا سوى ابنية متواضعة الأبعاد ، وانحطت أيضا الفنون التشكيلية القديمة ، وتشهد الصور المرسومة على جدران احدى المقابر في بواتيه على مدى الانحطاط الذي وصل إليه تصوير الجسم البشري ، وبرغم ذلك كانت تيجان الأعمدة ومنحوتات التوابيت المصنوعة في اكيتانيا لاتخلو من الأناقة والذوق ، كما أن بعض القبور في المنطقة الشمالية من غاليا تشتمل على تزيينات هندسية جميلة .

غير أن ما أنقذ سمعة الفن الميروفنجي هو فن الصياغة فقد وجد في المدافن الكثير من الحلي من أقراط وصفائح وخواتم وبوجه خاص الشكالات وأغلب موضوعات هذا الفن ، سواءا كانت حيوانية مبسطة أم هندسية ،مقتبسة عن الشعوب الشرقية ، وتميل أشكالها المختلفة الى تبسيط كبير في الخطوط يقترب من الفن الحديث ، وتعتمد على ابراز الوان الحجارة الثمينة المنزلة او على التضارب بين وهج المعادن المختلفة الداخلة في الصنع ويمكن ان نذكر بين آثار هذا الفن الصناديق التي كانت تحفظ فيها بقايا

القديسين وهي صناديق خشبية مغطاة بصفائح معدنية (نحاس او فضة) محفورة أو منقوشة ، وكان القديس ايلوا من اشهر صناع هذه الصنا ديق .

الحياة الدينية:

الكنيسة الميروفنجية:

سعى ملوك الفرنجة ، كما سعى فيما بعد كبار رجال المملكة ، الى استخدام نفوذ الكنيسة العصرية وسلطانها لما فيه فائدتهم ومصلحتهم الخاصة وكانت الكنيسة منذ عهد الأمبراطور قسطنطين ، تتمثل على الصعيد المحلي في شخص الأسقف الذي غدا الزعيم الروحي في المدينة واصبح الممثل الوحيد للكاثوليك والمدافع عن الغالو ـ رومانيين بعد سقوط الامبراطورية واختفاء الموظفين الامبراطوريين والسلطات البلدية ، وقد انحاز الاساقفة الغالنيون الى الميروفنجيين إثر اعتناق كلوفيس للديانة الكاثوليكية وتعاونوا معهم باخلاص ، وقد أدى هذا التعاون خدمات ثمينة لملوك الفرنجة لأن الأساقفة كانوا يهتمون بجميع نواحي الحياة المادية والروحية لرعاياهم ، فأخذوا على عاتقهم القيام بالمهمات والخدمات العامة التي تخلت عنها دولة البرابرة مثل : مساعدة الفقراء والبائسين ، وإقامة العدل والقضاء بين رعايا المحاكم الكنسيه ، وتأمين التعليم الديني للجميع ضمن إطار الدين الروماني الكاثوليكي ، واهتم الأساقفة ايضا بنشر الديانة المسيحية في أواسط الفلاحين الذين ظل الكثيرين منهم على وثنيتهم ، فتضاعف عدد الأبرشيات الريفية ، وكان أكثر هؤلاء الأحبار ينتمي الى الطبقة الارستقراطية القديمة الغنية المثقفة التي انقطعت عن ممارسة الوظائف العامة ، أما الأساقفة الجرمانيون فكانوا اقلية ، ففي مقاطعة اكيتانيا مثلا لم يكن يوجد بين ما يقرب من مائة اسقف سوى أثني عشر اسقفا يحملون اسماء جرمانية ، وقد يكون هؤلاء من أصل غالو ـ روماني لأن التسمية بأسماء جرمانية

أصبحت شائعة بين الغالو ـ رومانيين في ذلك الوقت ، ويبدو أن بعض العائلات الارستقراطية الغالو ـ رومانية كانت تحتكر منصب الأسقفية في بعض المدن ، فقد كان غريغوار اسقف تور سادس شخص يتولى هذ المنصب من العائلة نفسها .

وقد أغدق كلوفيس وخلفاؤه من بعده العطايا والهبات والامتيازات على الكنيسة ، وكانت الهبا ت العقارية واسعة بشكل أصبح معه الاسقف أكبر ملاك في مدينته ، بالاضافة الى شهادات الحماية والأعفاءات من الضرائب المباشرة وغير المباشرة ، وساعد الملوك الميروفنجيون على نشر الديانة المسيحية وتعميمها في غاليا فأصدر شيلدوبر عام ٥٥٤ أمرا بتحطيم الأصنام ، وأسس الكثير من الملوك والأمراء كنائس وأديرة عديدة في مختلف انحاء غاليا ، وكان الملوك يطلبون من الأساقفة مقابل ذلك الطاعة التامة ، فاحتفظوا لأنفسهم بحق الدعوة إلى عقد المجامع الدينية العامة ، والتدخل في الانتخابات الكنسيه سواء بتقسيم مرشح الأسقفية أو بتثبيت الأسقف المنتخب وتسليمه « الأسقفية » وهكذا استمر التفاهم والوفاق بين الملكية الميروفنجية والكنيسة ، وكان الاساقفة ، حتى منتصف القرن السادس على الأقل ، اهلا للمناصب التي يتولونها وقد جعل الناس من بعضهم قديسين لأسباب لم يكن لها غالبا صلة بالدين .

وأخذت الكنيسة الميروفنجية باكتساب الطابع الاقطاعي منذ نهاية القرن السادس ، ووصلت أملاك الكنيسة في بعض المقاطعات درجة من الاتساع لم يعد معها لدى الأسقف وقت للاهتمام بشيء اخر غير ادارة هذه الأملاك والمحافظة عليها ، وأخذ بعض الأساقفة يتصرفون تصرف الأمراء الزمنيين كقيادة الحامية في الدفاع عن المدينة ، وصار الملوك يختارون الأساقفة غالبا من ارستقراطي البلاد مثل كبار الموظفين المدنيين ، مما أدى الى اشتراك الأساقفة في المؤامرات والثورات التي كان الارستقراطيون يحيكونها ، وأهمل الأساقفة ، منذ القرن السابع ، الاهتمام بشؤون رعاياهم الدينية

أو بنشر الديانة المسيحية بين الوثنيين فانتقلت هذه المهمات الروحية شيئا فشيئا الى أيدي الاكليروس النظامي .

الحياة الرهبانية:

يعود نمو الحياة الرهبانية في غاليا واكتسابها أصالتها الى العصر الميروفنجي وخاصة في نهاية القرن السادس ، فقد شهدت غاليا آنذاك تكاثر عدد الأديرة بحيث أصبح يقرب من مائتي دير خلال قرن ونصف القرن وبذلت فيها الجهود لوضع قواعد وأصول هذا الشكل من الحياة الدينية .

ويعود الفضل في تطور الحركة الرهبانية في غاليا في هذا الاتجاه الى القديس كولومبان وهو راهب ايرلندي قدم الى غاليا في الربع الأخير من القرن السادس ، واضطر الى تغيير مقره فيها عدة مرات بسبب خلافه مع الاساقفة ومع الملك الميروفنجي ، ثم اضطر أخيرا الى مغادرتها وقد كان للقديس كولومبان وتلامذته تأثير كبير على الحركة الرهبانية في غاليا تجلى في انشاء عدد كبير من الأديرة في غاليا الشمالية (أشهرها دير لوكسل) من جهة ، ومن جهة أخرى في اتباع جميع هذه الأديرة في حياتها مبادىء متشابهة طبقا للقاعدتين اللتين وضعهما القديس كولومبان دون أن تؤلف نظاما رهبانيا ، ولا تتضمن قواعد القديس كولومبان تعاليم دقيقة فيما يتعلق بالتنظيم الداخلي في الأديرة بل تحدد نوعا من الحياة المشتركة تقوم على الخضوع أمام الراعي ، وهو السيد المطلق للجماعة الديرية ، وعلى الزهد الفردي الشديد ، وقد كان للرهبان الكولومبانيين تأثير كبير في نشر المسيحية إذ كان الحماس للتبشير الديني أحد الميزات التي يتصفون بها فكانوا يخصصون جزءا من نشاطهم للتبشير.

ونشأت في غاليا أديرة تبنت قاعدة القديس بندكت . وتختلف القاعدة البندكتية في روحها اختلافا تاما عن قاعدة القديس كولومبان

فهي تشدد على أهمية الحياة المشتركة تحت سلطة راعي الدير الذي ينتخب لمدى الحياة وتستبدل النسك الفردي بالصلوات الجماعية وبالعمل ، وخاصة العمل اليدوي ، وقد اتسع انتشار هذه القاعدة في غاليا في النصف الثاني من القرن السابع ولا سيما بعد نقل بقايا القديس بندكت الى دير فلورى على نهر اللوار حوالي عام ٦٧٢ م.

وقد أدى التنافس بين هاتين القاعدتين الرهبانيتين الى نشوء قواعد رهبانية جديدة تحاول التوفيق بينهما .

يتضح مما سبق أن توسع الحياة الرهبانية كان احدى خصائص ومميزات العصر الميروفنجي ، وبعد أن كان الأسقف . حتى أوائل القرن السادس ، هو رجل الدين الذي ينظر اليه عامة الناس نظرة تقديس واجلال ، حل الراهب محله في هذا الدور تجاه الراي العام المسيحي منذ ذلك القرن.

بريطانيا (المملكة الأنكلو ـ سكسونية)

لايزال تاريخ بريطانيا في مطلع العصور الوسطى غير معروف بشكل جيد ، والمعلومات البسيطة المتوفرة لدينا مستمدة من معطيات علم الآثار ، وهي معطيات بسيطة متفرقة يصعب تحديد تاريخها بدقة ، ومن كتابات ثلاثة مؤرخين فقط وهم: الراهب جيلداس الذي وضع كتيبا عن « غزو بريطانيا وخرابها ، امتدح فيه الاصلاح الذي قام به البريطانيون في القرن السادس وانتقد الزعماء الصغار الذين كانوا يحاولون عرقلته ، وبروكوبيوس القيساري الذي وصف بريطانيا في القرن السادس حسب ما سمعه من مبعوثي ملك الفرنجة الى القسطنطية ، والمؤرخ الأنكلو ـ سكسوني بيد الذي وضع نحو عام ٧٣١ م كتابا سماه « تاريخ الكنيسة » تلبية لرغبة احد ملوك نورثمبريا افتخر فيه بأعمال ملوك السكسون الأوائل .

ولكن المؤكد أنه نشبت بين سكان بريطانيا من البريطانيين والرومانيين وبين الغزاة الجرمان الأنكل والسكسون والجوت حرب عنيفة لا هوادة ولا رحمة فيها امتدت منذ منتصف القرن الخامس حتى نهاية القرن السادس ، وكانت تتخلل هذه الحرب فترات سلم وهدوء نسبيين على اثر المعارك الكبرى التي كان المتحاربون فيها يبيد بعضهم بعضا .

كانت قبائل السكسون تقطن في الشمال الغربي من جرمانيا بين نهري ايمس والويزر وقبائل الأنكل في الجزر المقابلة لسواحل شبه جزيرة جوتلاند بينما سكنت قبائل الجوت في حوض الراين الأسفل الى جوار بعض الفرنجة .

وقد أخذ القراصنة الذين ينتمون الى هذه القبائل ـ كانوا يجوبون بحر الشمال ـ بمهاجمة سواحل بريطانيا الشرقية

والجنوبية مستهدفين السلب والنهب فقط ، ولكن في القرن الخامس وعلى اثر الغارات البربرية الكبرى في القارة الأوربية وانسحاب الرومان من بريطانيا ، أخذت جماعات عديدة من الأنكل والسكسون والجوت بغزو بريطانيا بقصد التوطن والأستقرار فيها . واشتدت هذه الغزوات واتخذت شكل هجرات حقيقية بعد عام ٤٥٠ م.

ففي عام ٤٤٩ م نزلت جماعة من السكسون ، كما يروي المؤرخ بيد ويؤيده في ذلك الراهب جيلداس في منطقة كنت في الزاوية الجنوبية الشرقية من انكلترا وتوصلت إلى تأسيس مملكة سكسونية فيها خلال نحو ربع قرن .

وفي عام ٤٤٧ م قامت جماعات أخرى من السكسون بغزو مقاطعة ساسكس على الساحل الجنوبي من الجزيرة وتوصلت إلى إخضاعها في غضون نحو من خمس عشرة سنة .

وغزت جماعات غيرها ، من السكسون أيضا ،مقاطعة الوسيكس في جنوب الجزيرة حوالي عام ٤٩٤ م واستتب لها الأمر فيها عام ٥٠٨ م وفي نهاية القرن الخامس احتلت جماعة من المغامرين الجوت جزيرة وايت مقابل الساحل الجنوبي .

وهاجمت عصابات من قبائل الانكل والسكسون السواحل الشرقية للجزيرة عند مصبات الأنهار ولاسيما في خليج واش واتبعوا مجاري الأنهار متوغلين نحو الداخل كمجرى نهر نين ونهر أوز ونهر التيمس وانشأوا محطات ونقاط ارتكاز لهم في تلك المناطق .

ولم يتم استقرار الغزاة الجرمان في المقاطعات التي نزلوا فيها إلا بعد حروب دامية ومقاومة ضارية عنيفة من قبل البريطانيين ، وكانت المعارك بين الطرفين أشبه بمجازر يسقط فيها الاف القتلى من الطرفين ، وغالبا ماكان السكسون يلاحقون البريطانيين المهزومين إلى قلب الغابات للقضاء عليهم ، كما أن نقمتهم وبطشهم كانا يتناولان غير المحاربين من سكان المناطق التي يحتلونها فكانوا يستبيحون المدن ويعملون فيها النهب والسلب والقتل .

غير أن البريطانيين الذين أذهلتهم المفاجأة بالغزو استعادوا تنظيم جهودهم وتوحيدها بفضل بعض زعمائهم مثل أوريليانوس فاستطاعوا في القرن السادس إيقاف توسع ممالك السكسون في الجنوب والاحتفاظ بكل انكلترا الغربية وحوض التيمس وفرض سياستهم على مستوطنات الانكل ـ سكسون في حوض التيمس الأوسط . ولكنهم رغم انتصاراتهم العسكرية ، لم يستطيعوا استئصال الممالك البربرية أو إعادة بناء المدن المخربة أو القضاء على التنافس والمنازعات بين الزعماء المحليين .

ثم استعاد الجرمان زمام المبادهة والهجوم في أواخر القرن السادس ، وحقق ملوك وسيكس انتصارات حاسمة على البريطانيين ولاسيما في معركة ديرهام عام ٥٧٧ م ، وعلى إثر ذلك انسحب البريطانيون إلى المناطق الجبلية الغربية واعتصموا فيها وهاجر قسم كبير منهم إلى غاليا ، وانتقلت ملكية السهول الخصبة في شرق بريطانيا إلى أيدي الجرمان الغزاة .

ويصبح تاريخ بريطانيا والممالك البربرية فيها شديد الغموض والاضطراب في القرن السابع ، ويبدو أن البريطانيين استمروا في المقاومة في الجنوب حيث أسسوا دولا منيعة في منطقتي كورنويل وويلز الجبليتين ، كما استمرت مقاومتهم طوال القرن السابع ، في شمال انكلترا ، ولم يستطع الانكلو ـ سكسون تشكيل مملكة موحدة قوية ، ويبدو أن الجرمان شكلوا خلال هذا القرن ثماني ممالك في بريطانيا وهي : مملكة نورثمبريا في الشمال ومملكة لندسس على الساحل الشرقي شمال خليج واش ، ومملكة انغليا الشرقية جنوب خليج واش ومملكة اسكس شمال نهر التيمس وممالك كنت وساسيكس ووسيكس وجزيرة وايت في الجنوب ، وفي هذا القرن ايضا تم إعتناق الانكلو ـ سكسون للديانة المسيحية بفضل البعثات التبشيرية التي أرسلها البابوات إلى الجزيرة .

وكانت هذه الممالك الانكلو ـ سكسونية في خلاف ونزاع دائمين فيما بينها وأهمها ممالك كنت ووسكس ومرسيا ونورثمبريا ، وقد حاولت

كل من هذه الممالك الأربعة توحيد بريطانيا تحت سيادتها ، ولكن جميع محاولات التوحيد لم تنجح إلا لفترة بسيطة من الزمن وانتهت بالاخفاق ، وذلك لأنها كانت تقوم على جهود ملك قوي يتمتع بالنبوغ العسكري بحيث يتمكن من إخضاع الملوك المجاورين ، ولأن محاولات التوحيد كانت تصطدم بمقاومة البريطانيين الشديدة الذين عرفوا كيف يستغلون الخلافات بين ملوك الانكلو ـ سكسون للحيلولة دون تشكيل مملكة انكلو ـ سكسونية موحدة وقوية .

النظم الانكلو ـ سكسونية

كان الغزاة الانكلو ـ سكسون يتألفون من جماعات عديدة لكل منها زعيمها ، وبعد أن تم لها النصر على البريطانيين لم تتحد فيما بينها لتؤلف مملكة واحدة على غرار ماحدث في غاليا الفرنجية أو إسبانيا القوطية ، بل أقامت عددا كبيرا من الدويلات وكان لكل دويلة ملك منتخب من بين أفراد عائلة يعتقد أن نسبها يتصل إلى الآلهة ، فالملكية لم تكن مؤسسة سياسية بقدر ماكانت امتيازا لشخص يتمتع بمواهب عسكرية لأن الملك زعيم عسكري قبل كل شيء ، وكان النشاط الرئيسي للملك هو شن الحرب ضد الملوك المجاورين فإذا تغلب على أحدهم ضم مملكته أو فرض عليه الجزية ، وقد نجح بعض الملوك في فرض سيطرتهم على انكلترا بأكملها وحملوا لقب « برتويلد » وكان في كل دويلة ، إلى جانب الملك مجلس يدعى مجلس العقلاء يضم أهم نبلاء المملكة وهو الذي ينتخب الملك ، وعلى هذا الأخير أن يستشير المجلس في كل الأمور الهامة .

ويتألف المجتمع من عدة طبقات تختلف نوعا ما من مملكة إلى أخرى ، وكانت أعلى طبقات المجتمع هي الطبقة التي تشكل أفراد العائلة الملكية ويطلق عليهم اسم اكثيلنغ وكان يليها طبقة النبلاء الذين يحملون لقب ايدل وكان جميع هؤلاء من المحاربين الذين يخدمون الملك وأعضاء الأسرة الملكية ، وأتى على رأس الطبقات العامة في استثمار الأرض الفلاحون الأحرار وتلاهم طبقات عدة من غير الأحرار وأدناها طبقة العبيد .

وقد حافظ الانكلو ـ سكسون على أعرافهم القديمة وأنشأ الملوك محاكم شعبية رأس كل منها ممثل عن الملك من النبلاء ، وتمتع جميع الرجال الأحرار بحق حضور المحاكمات وكانت الأحكام تصدر

بإجماع أصوات الحاضرين ، وحق للملك أن يصدر ، بالاتفاق مع مجلس العقلاء ، قرارات تعدل الأعراف التقليدية أو تضيف إليها قوانين جديدة .

وكان الانكلو ـ سكسون ، كغيرهم من الشعوب الجرمانية ، وثنيين يعبدون قوى الطبيعة ، وأشهر الآلهة أودان الذي ادعت أكثر الأسر الملكية أن نسبها يرتقي إليه ، وإلى جانب الآلهة وجد العديد من الكائنات العلوية مثل الفالكيرى والايلف ، وتوجد شواهد كثيرة تدل على أنهم كانوا يحرقون الموتى بدلا عن دفنهم .

وكانت الزراعة هي عماد الحياة الاقتصادية ، وكان الانكلو ـ سكسون يطبقون أسلوب الدورة الثلاثية في الزراعة ، وكانوا يعرفون الحبوب ولكنهم جهلوا اكثر أنواع الخضر والفواكه ، وكانت الصناعة بسيطة جدا تقتصر على صنع الأدوات الضرورية للأعمال الزراعية والأسلحة والحلي أما أهم المبادلات التجارية فكانت مع مملكة الفرنجة والمركز التجاري الرئيسي هو مدينة لندن .

الكنيسة الانكلو ـ سكسونية

كان اعتناق الانكلو ـ سكسون للديانة المسيحية الكاثوليكية عاملا مساعدا إلى حد بعيد على تحقيق الوحدة الأخلاقية والسياسية في وطنهم الجديد ، وفي إعادة الصلات بين بريطانيا والعالم الروماني .

ويعود بدء النشاط التبشيري بين الانكلو ـ سكسون إلى نهاية القرن السادس عندما بادر البابا غريغوري الكبير إلى إرسال بعثة تبشيرية مؤلفة من أربعين راهبا إيطاليا تحت رئاسة أوغسطين ، وحلت هذه البعثة في مملكة كنت حيث سمح لها الملك بالاقامة في مدينة

كانتربري منذ عام ٥٩٧ م ، وكانت توجيهات البابا لاوغسطين تتمتع بالاعتدال نحو الجرمان الذين يعتنقون الكاثوليكية الرومانية ونحو البريطانيين المرتبطين بالطقوس الدينية الايرلندية . وكلف البابا أيضا أوغسطين برسم الأساقفة الجدد في بريطانيا .

اقتصرت أعمال التبشير لزمن طويل على مملكة كنت التي كان ملكها يحمي ويشجع المبشرين ، واعتنق هو نفسه الدين الجديد ، وقد حاول المبشرون الايطاليون دون جدوى ، التعاون مع الأساقفة البريطانيين الذين كانوا يعدون الايطاليين أجانبا ويكرهون الجرمان إلى حد أنهم « يخشون الالتقاء بهم في الجنة في اليوم الآخر إذا هم اهتدوا إلى الدين الصحيح » ، واقنع ملك كنت حليفه ملك انغليا الشرقية باعتناق الكاثوليكية والتعمد ، ولكن رعاياه سكان انغليا الشرقية لم يحذوا حذوه ، كما أن سكان مملكة كنت ارتدوا إلى الوثنية بعد موت ملكهم التقي عام ٦١٦ ، مما دفع أوغسطين وزملاءه إلى القنوط واليأس حتى كادوا أن يرجعوا إلى غاليا هربا من ردة فعل الوثنيين ، غير أنهم استعادوا شجاعتهم وتصميمهم على البقاء في بريطانيا ومتابعة التبشير برغم كل المصاعب ، وكانت نتيجة هذا التصميم استمرار بقاء مركز كانتربري حتى توصل احد خلفاء أوغسطين الى تعميد الملك الوثني في كنت ، ومنذ ذلك الحين اصبح ملوك كنت حماة مخلصين للكنيسة .

وأحرزت بعثة كانتر بري التبشيرية نجاحا كبيرا عندما اعتنق ادوين ملك نورثمبريا المسيحية واصبحت مدينة يورك مركزا للأسقفية ، غير أن خلف ادوين شجع الرهبان الايرلنديين واعتمد عليهم في نشر المسيحية في مملكته ، واستخدم ملك نورثمبريا نفوذه وصلات القربى التي تربطه بملكي الوسكس والساسكس لكي يحملهما على اعتناق المسيحية وعلى قبول المبشرين في مملكتيهما ، وماان أطل النصف الثاني من القرن السابع حتى كانت المسيحية قد عمت في كل انكلترا الوسطى والشمالية .

وفي عام ٦٦٧ م عين البابا أسقفا جديدا في كانتر بري يدعى

ثيودور . وقد عمل الأسقف الجديد على تنظيم الكنيسة الكاثوليكية في بريطانيا وبعث نشاط بعثة كانتر بري ففرض نظاما شديدا على رجال الدين وعزل الأساقفة المنشقين أو الهراطقة ، ودعا الى عقد مجمع ديني للأساقفة الكاثوليك عام ٦٧٢ م وعين اسقفا لمدينة يورك في نورثمبريا يدعى ويلفرد استطاع بنشاطه وحماسه للكاثوليكية والمذهب الرهباني البندكتي أن يحقق انتصاراً لطريقة البندكتية على الطرق الايرلندية في مملكة نورثمبريا ، غير أن طمعه وجبه للسلطة أدى في أواخر القرن السابع الى ايقاع الخلاف والنزاع بينه وبين ملوك نورثمبريا وأساقفتها الوطنيين ، وقد استمر النزاع مدة طويلة وتدخل اسقف كانتر بري والبابا نفسه فيه .

ورغم أنهما توصلا الى تحقيق تسوية بين الطرفين المتنازعين فقد بقيت بذور الشقاق والانقسام بين كنيسة نورثمبريا والكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، وفقد أساقفة كانتر بري وممثلوا البابا في بريطانيا كل سلطة لهم على اساقفة نورثمبريا منذ عام ٧٣١ م حتى أن البابا نفسه اضطر عام ٧٣٥ م الى منح أسقف مدينة يورك مرتبة رئيس أساقفة .

وهكذا كانت انكلترا في اواسط القرن الثامن بعيدة عن تحقيق الوحدة الدينية بعدها عن تحقيق وحدتها السياسية .

الامبراطورية الكارولنجية

- اوائل الكارولنجيين:

أقدم من يعرف من الكارولنجيين هو بيبن لاندن الملقب بالشيخ والذي كان حاجبا للقصر في عهد داغوبيرت الأول . ثم تولى حفيده بيبن الهرستالي الملقب بالشاب حجابة القصر في اوسترازيا في دور الضعف الميروفنجي واصبحت حجابة القصر وراثية في عائلته . وقد استطاع بيبن الشاب ان يحقق الوحدة السياسية لمملكة الفرنجة تحت سيادته بعد انتصاره على حاجب قصر نوستريا في موقعة ترتري عام ٦٣٦ م وتنصيبه ابنه غريموالد حاجبا لملكتي نوستريا وبرغنديا ولكن بيبن لم يدع خلفا له بعد موته عام ٧١٤ م سوى حفيد في السادسة من عمره لأن ابنه غريموالد كان قد قتل قبل ذلك بوقت قصير . واغتنم كبار مملكة نوستريا هذه الفرصة ليثوروا على عائلة بيبن وينتخبوا واحدا منهم حاجبا لقصر نوستريا وانضم اليهم دوق اكيتانيا فقدم على رأس جيش لمساعدتهم في محاربة الاوسترازيين . وكادت منجزات بيبن تنهار لولا ان ابنه الطبيعي شارل استطاع الهرب من سجن ارملة ابيه وتزعم الاوسترازيين في الحرب وانتصر على النوستريين وحليفهم دوق اكيتانيا في موقعة قرب مدينة سواسون واصبح في عام ٧١٩ سيد اوسترازيا ونوستريا وفي عام ٧٢١ م اعترف بتييرى الرابع الميروفنجي ملكا ، وقاد عدة حملات ضد السكسون.وفي عام ٧٣٢ م تمكن من ايقاف تقدم العرب في موقعة بواتية ولقب على اثرها بـ « شارل مارتل » (من اللاتينية أي المطرقة) ثم اعاد اخضاع اكيتانيا وبرغنديا محققا بذلك توحيد مملكة الفرنجة من جديد تحت سيادته الفعلية اذ لم يكن للملك الميروفنجي أي سلطة ، وقد اصبح شارل مارتل يتمتع بنفوذ واسع

ولاسيما بعد انتصاره على العرب حيث ظهر بمظهر المدافع عن المسيحية وبلغ من نفوذه أنه ترك منصب الملكية شاغرا بعد موت الملك تييرى الرابع عام ٧٣٧ م ، ولكنه برغم ذلك لم يقدم على قلب السلالة الميروفنجية ، واتخاذ اللقب الملكي لنفسه ، وقد يكون السبب في ذلك راجعا الى وجود حزب قوي بين كبار المملكة يقر بشرعية حكم السلالة الميروفنجية فالجرمان منهم لايزالون متأثرين بالصفة القدسية التي تتمتع بها تلك السلالة التي كانوا يعتقدون ، عندما كانوا وثنيين ، انها من نسل أحد الآلهة ، ويرون أن المملكة التي انشأها كلوفيس بقوة السلاح حق طبيعي لأحفاده من بعده ، كما أن الغالو ـ رومانيين منهم كانوا يرون شرعية حكم الميروفنجيين لأنهم احفاد كلوفس الذي حقق انتصار المسيحية الكاثوليكية على الوثنية وعلى الآريوسية . والذي تلقى شارات القنصلية ولقب باتريس من الامبراطور ، ويمكن بذلك عده ممثلا أو نائبا في الغرب .

هذا وقد عمل شارل مارتل على تأمين خلافته فقسم المملكة بين ابنيه كارلومان وبيبن قبل موته عام ٧٤١ م .

تأسيس الملكية الكارولنجية : بيبن القصير:

٢ـ انقلاب بيبن القصير:

حكم كارلومان وبيبن الملقب بالقصير ابنا شارل مارتل المملكة الفرنسية بعد موت أبيهما معا ، وأبقيا منصب الملكية شاغرا عدة أشهر اضطرا بعدها إلى انتخاب أحد الميروفنجيين شيلدريك الثالث ، ملكا ويبدو أن ذلك كان بإصرار من جانب كارلومان الذي يعده بعض المؤرخين زعيما للحزب المؤيد تقيا ورعا ، ولذا اعتزل الحكم بعد بضع سنوات وانسحب إلى دير تاركا أخاه بيبن ينفرد في الحكم .

أما بيبن الذي أصبح بعد انسحاب أخيه الحاكم الوحيد فكان يتصف بأنه واقعي ، ويزن الأمور قبل الاقدام عليها ، وقد توطدت له السلطة بانسحاب أخيه وهو الذي سيحقق مالم يقدم عليه أبوه أي قلب السلالة الميروفنجية وتأسيس الملكية الكارولنجية . ولكن بيبن لم يتعجل الأمور إذ كان عليه أن يجد أولا المسوغ الشرعي لتنفيذ انقلابه ، وقد وجد هذا المسوغ في الفتوى التي أصدرها البابا ، وتتباين الآراء حول هذا الموضوع : هل بيبن هو الذي سعى إلى إيجاد المسوغ الشرعي الذي يحتاج إليه لدى الكرسي المقدس أم أن الكرسي المقدس هو الذي دفع بيبن ، بشكل غير مباشر ، إلى اللجوء إليه لهذا الغرض ؟ المهم أن حاجة كل منهما إلى الآخر جمعت بينهما . فبيبن كان في حاجة إلى الكرسي المقدس لمنحه الفتوى الدينية التي تسوغ له اتخاذ لقب ملك . وكان الكرسي المقدس في حاجة إلى مساعدة بيبن العسكرية ضد أطماع اللومبارديين التوسعية .

وعندما أصبح اللومبارديون يهددون دوقية روما بالاكتساح انتهز بيبن تلك الفرصة لكي يرسل إلى البابا زكريا وفدا مؤلفا من بركارد أسقف مدينة وورتزبرغ ومن كاهنه الخاص فولراد يطلب إليه باسم الفرنجة : « من الذي يجب أن يكون ملكا عليهم : الأمير الذي لايملك شيئا من السلطة أم ذلك الذي يملك السلطة ؟ ، ولم يتردد البابا في الاجابة : « الأفضل أن يسمى ملكا من يملك السلطة الحقيقية لا من لايلمس بيده شيء منها » ، وكان هذا بمثابة صك التحالف بين الأسرة الكارولنجية والكرسي المقدس ، وكافأ البابا الكاهن فولراد لماقام به من دور في التقريب بين الطرفين بأن عينه راعيا لدير سان دنس .

كان جواب البابا الحجة التي استند إليها بيبن عندما تقدم إلى كبار المملكة بترشيح نفسه لكي ينتخبوه ملكا عليهم وذلك في عام ٧٥١ م ، فنادوا به ملكا حسب المراسم الجرمانية التقليدية وفي نهاية عام ٧٥١ م مسح القديس بونيفيس الملك الجديد في مدينة

سواسون مضفيا بذلك على سلطته الزمنية صبغة دينية قدسية . أما الملك الميروفنجي المخلوع شيلديريك الثالث فقد أرسل إلى دير سان برتان ليقضي فيه بقية حياته .

لم يتم هذا الانقلاب في السلالة المالكة ، رغم تأييد البابا دون معارضة فقد أثار على مايبدو بعض القلاقل والاضطرابات الشعبية المناهضة له ولكن هذه الاضطرابات كانت بسيطة استطاع بيبن إخمادها بسهولة

بيبن القصير والكرسي المقدس:

شعر البابا ايتين الثاني الذي خلف البابا زكريا بالحاجة إلى وضع التحالف مع بيبن موضع التطبيق بعد أن توغل ملك اللومبارديين ايستولف بأعمال توسعية داخل دوقية روما عام ٧٥٢ م ، فأرسل البابا الجديد إلى بيبن يسأله ماإذا كان يمكنه الاعتماد عليه عند الحاجة وكان جواب بيبن إيجابيا .

ولم يعد البابا يفكر بغير الالتجاء إلى ملك الفرنجة ، وكان عليه ، لتحقيق ذلك ، أن ينجو في أن واحد من البيزنطيين ومن اللومبارديين وجاءت المناسبة المواتية لتنفيذ مايحلم به عندما طلب إليه الأمبراطور البيزنطي أن يلتحق بالمندوب الذي أرسله إلى ملك اللومبارديين ليطلب منه باسم الأمبراطور التخلي عن الأراضي التي احتلها ، وتمت المقابلة مع ملك اللومباردين في عاصمته بافيا في أواخر عام ٧٥٣ م دون أن تؤدي إلى نتيجة مرضية لأن ايستولف رفض الاستجابة إلى طلب الامبراطور ، وبدلا من أن يعود البابا أيتين الثاني إلى روما استطاع الهرب من مندوب الامبراطور ومن الملك اللومباردي وأخذ طريقه نحو فرنسا .

وعندما أصبح البابا في مأمن خطرت له مسألة هامة : كيف سيستقبله بيبن ؟ ... هل سيستقبله بصفته أسقفا لمدينة روما كغيره من الأساقفة أم بصفته الحبر الأعظم والرئيس الروحي للكنيسة

المسيحية كلها ؟ ... ولكي لايدع مجالا للتردد في هذه المسألة وضع ، حسب رأي النقاد الوثيقة التي عرفت باسم « هبة قسطنطين وهي رسالة موجهة من الامبراطور قسطنطين الكبير إلى اسقف مدينة روما المعاصر له سيلفستر الأول يمنحه فيها الأمبراطورية ويقول فيها إن الأباطرة سيكونون من رعايا الحبر الأعظم وأنهم سيقودون مطيتهم في الاحتفالات ، وقد اعتقد رجال العصر الوسيط بصحة هذه الرسالة حتى كشف عن تزويرها في النصف الثاني من القرن الخامس عشر .

ومهما يكن من أمر ، فقد استقبل بيبن القصير البابا أيتين عند وصوله إلى المقر الملكي في بونتون حسب ماجاء في تلك الوثيقة وبدأت المفاوضات بين الطرفين في بونتون ثم توبعت في دير سان دنس وقد هدفت إلى تحقيق شرطي التحالف أي : اعتراف البابا الشخصي ببيبن القصير ملكا على فرنسا ، وتقديم بيبن المساعدة العسكرية للبابا ضد اللومبارديين ، وتم تنفيذ الشرط الأول في ربيع عام ٧٥٦ م عندما توج البابا بنفسه بيبن ومسحه مع ابنيه ملوكا على الفرنجة وحماة للرومانيين ، وحرم على كبار رجالات المملكة أن ينتخبوا ملكا عليهم من غير السلالة الجديدة .

بقي على بيبن تنفيذ تعهده للبابا . فبدأ لذلك مفاوضات مع ايستولف ملك اللومبارديين لكي يعيد إلى البابا مااحتله اللومبارديين من أرض دوقية روما ونيابة رافين ، ولما كانت المفاوضات عقيمة فقد توجه بيبن ، يرافقه البابا ، إلى إيطاليا في ربيع عام ٧٥٥ وحاصر ايستولف في عاصمته بافيا . ولم يرفع الحصار عنها ويرجع إلى بلاده حتى وعد ايستولف بتنفيذ طلبات ملك الفرنجة . غير أن ايستولف نكث بوعده وزحف مجددا نحو روما وحاصرها في مطلع ٧٥٦ م ، فعجل البابا بإرسال مندوب إلى بيبن ثم برسالة مؤثرة حررها باسم القديس بطرس نفسه ، يستنجد فيها بملك الفرنجة . فعاد بيبن إلى إيطاليا في ربيع ٧٥٦ م وحاصر بافيا وأجبر ايستولف على أن يسلم مندوب البابا ماكان احتله من نيابة

رافين ، بالاضافة إلى الاراضي التي كان يحتلها في دوقية روما ، كما فرض عليه غرامة حربية وجزية وكان ذلك بداية تكوين دولة الكنيسة التي ستستمر خلال عدة قرون ، وبعد موت أيستولف عام ٧٥٦ م عمل البابا وبيبن على تعيين الأمير اللومباردي ديديه خلفا له ، ومالبث الخلاف أن نشب بين البابا والملك اللومباردي الجديد الذي عاد إلى أتباع سياسة أسلافه ، ولكن بيبن سلك سياسة التوفيق بينهما وتوصل إلى تسوية الخلافات بينهما عام ٧٦٣ م .

بيبن وزعيم السلطة الملكية:

كان على بيبن أن يؤمن توطيد سلطته في داخل مملكته وان يؤمن حماية حدودها . ولذا فقد اهتم بإخضاع دوقية اكسيتانيا التي كان دوقها يعود إلى التمرد والاستقلال بعد كل مرة يعلن فيها خضوعه للملك ، ولذا كان بيبن يوجه إليها كل سنة حملة عسكرية حتى عام ٧٦٨ م حيث قتل الدوق المتمرد وتم إخضاع اكسيتانيا نهائيا .

وتمكن بيبن بين عامي ٧٥٢ و ٧٥٩ أن ينتزع مقاطعة سبتمانيا في الجنوب من المسلمين بفضل مساعدة سكانها له ومساعدة اللومبارديين ، وقد عرف بيبن كيف يستميل سكان المقاطعات المفتوحة بأن ضمان لهم سلامة املاكهم وترك لهم القوانين والأنظمة التي اعتادوا عليها .

وعمل بيبن على اخضاع السكسونيين الذين كانوا يقومون بالغزو على مقاطعتي هسن وتورنجة فوجه ضدهم حملتين عام ٧٥٣ وعام ٧٥٨ واجبرهم على الرضوخ ودفع الجزية

وكان الاخفاق الوحيد الذي لقيه بيبن في سياستة الخارجية هو استقلال دوق بافاريا عام٧٦٣ فقد كان تاسيلون دوق بافاريا من الرعايا المخلصين لملك الفرنجة ، ولكنه بعد أن ساهم في الحملات الموجهة إلى اكيتانيا ، رأى أن بافاريا لا تجني اي فائدة من ذلك

فأعلن استقلاله عام ٧٦٣ م ، وتوفي بيبن القصير دون أن تتاح له الفرصة لاعادة دوق بافاريا الى الاعتراف بسيادته .

وحافظ بيبن ، برغم تدخله في ايطاليا ، على علاقات ودية مع الامبراطورية البيزنطية ، وقد حاولت بيزنطة جره الى صفها في خلافها مع البابا حول بعض القضايا الدينية كعبادة الصور ومسألة انبثاق الروح القدس الا أن بيبن كان كاثوليكيا مخلصا يحترم الدور الروحي الذي يمثله البابا ، ولذا لم يؤيد بيزنطة في هذا الخلاف .

ويمكن الكلام عن سياسة تقارب بين بيبن وبين الدولة العباسية قائمة على العداء المشترك بينهما للدولة الأموية في الأندلس وقد ظهر هذا التقارب في تبادل السفراء بين بيبن القصير والخليفة العباسي المنصور .

رغم أن بيبن بذل جهودا كبيرة في توحيد مملكة الفرنجة فقد عاد الى تقسيمها قبل موته بين ابنيه شارل وكارلومان حسب خط يذهب من الشمال الشرقي الى الجنوب الغربي ، فخص ابنه الكبير شارل بولايات المانيا والالزاس وبرغنديا وبروفانس وسبتيمانيا وجزء من اكيتانيا وخص الابن الآخر كارلومان بنوستريا واوسترازيا وبقية اكيتانيا .

١ ـ شخصية شارلمان وبداية حكمه:

ولد شارلمان عام ٧٤٢ م . وكان جرمانيا متين البنيان متوازن التركيب مستدير الراس ، واسع العينين ، بشوشا ، بسيطا في مظهره الخارجي وفي نمط حياته . وكان ولوعا بالصيد ، كريما وعطوفا ، وكان أبا محبا لأبنائه وبناته ، وقد اكتسب ثقافة جيدة بجهوده الخاصة وأحاط نفسه بعدد من كبار المثقفين في عصره .

تولى شارل الحكم مع اخيه الأصغر كارلومان حسب وصية ابيهما بيبن الذي قسم بينهما مملكته قبل موته . ولكن بدأ الشقاق بين الأخوين على اثر رفض كارلومان مساعدة أخيه شارل في اخماد ثورة دوق اكيتانيا عام ٧٦٩ م ، ثم تجدد الشقاق بينهما في السنة التالية بسبب موقف كل منهما تجاه ملك اللومبارديين ديدييه الذي اعتقد انه ، بتزوج شارل من ابنته ، اصبح في مأمن من جانب ملوك الفرنجة حماة الكرسي المقدس ، فسار الى روما وأجبر البابا ايتين الثالث على أن يسلمه رؤساء الحزب المناصر للفرنجة في الأجهزة الادارية في الكنيسة وذلك في ربيع عام ٧٧١ م ، وبعد وقت قصير مات كارلومان فجأة مخلفا طفلين صغيرين ، فسارع شارل الى احتلال ممتلكاتهما وضمها الى مملكته ، واضطرت أرملة اخيه الى الهرب بطفليها والتجأت الى ديدييه ملك اللومبارديين .

التدخل في ايطاليا:

اتخذ شارلمان موقفا مؤيدا للبابا ووقف ضد غزو اللومبارديين لأراضي الكرسي المقدس وأعرب عن موقفه هذا بتطليق ابنة الملك اللومباردي وقد حاول هذا الأخير فصم عرى التحالف بين البابا وشارلمان بأن يجبر البابا هادريان الأول على تكريس ابني كارلومان ملكين على الفرنجة ، وبدأ باكتساح الأراضي التي كان قد تنازل عنها للكرسي المقدس ، مصطحبا معه ابني كارلومان لتكريسهما في روما ، وكان شارلمان انذاك يقود حملته الأولى ضد السكسون ، لذا حاول التهرب من تلبية استغاثة البابا والمفاوضة مع ديدييه ولما اخفقت هذه المفاوضات توجه شارلمان على رأس جيشه الى ايطاليا في اواسط عام ٧٧٣ م فاجتاز جبال الالب وتملك الخوف اللومبارديين الذين هربوا أمام زحف جيش الفرنجة والتجأوا ، بعد سقوط مدنهم إلى العاصمة بافيا حيث فرض عليهم الحصار ، وقد امتد الحصار أمدا طويلا مما اتاح لشارلمان الفرصة لقضاء أعياد الفصح عام ٧٧٤ م في روما .

وقد استقبل هادريان الأول شارلمان في روما بمظاهر الحفاوة والتكريم ، ولكنه خشي مما قد تجره اقامة مثل هذا الزائر العظيم في روما من اخطار على سلطة البابا ، ولذا رغب في أن تكون اقامته خارج المدينة المقدسة ، وقد نزل شارلمان عند هذه الرغبة ، واستفاد البابا مما ابداه ملك الفرنجة من النوايا الحسنة لكي يحصل منه على تأكيد جديد للهبة التي منحها ابوه بيبن للكرسي المقدس .وكانت الوثيقة الجديدة التي حصل عليها تمنح الكرسي المقدس ، عدا ما سبق أن منحه بيبن مقاطعة توسكانا مع جزيرة كورسيكا، ودوقية سبوليت ، ودوقية بينفيان ، والبندقية التي كانت لا تزال تحت الادارة البيزنطية ، وقد اختلف المؤرخون المحدثون في تعليل هذه الوثيقة التي منحها شارلمان الى البابا هادريان الأول ، فمنهم من يذهب الى القول بعدم صحتها ، ويرى بعضهم أن شارلمان اراد ان يكون له حليف قوي في ايطاليا ولذا اقتسمها مع البابا ، بحيث يحتفظ لنفسه بكل مالم يمنح صراحة الى الكرسي المقدس ، بينما يرى اخرون أن البابا استطاع أن يستغل تقوى شارلمان وورعه لكي يلعب عليه ويحصل منه على تلك الوثيقة .وسواء اكانت هذه الزيادة في الهبة للكرسي المقدس عن طواعية وبارادة شارلمان ، أوان البابا خدعه للحصول عليها فقد كانت سياسته في ايطاليا خلال العشرين سنة التالية ترمي إلى الحد من مطامح البابا هارديان الأول .

عاد شارلمان بعد قضاء اعياد الفصح في روما الى جيشه الذي كان لا يزال يحاصر بافيا وبعد قليل استسلم ديديه الذي نفي الى احد الأديرة وتوج شارلمان نفسه ملكا على اللومبارديين . وكان اول اعماله بعد ذلك أن وضع تحت سيادة البابا الأراضي التي انتزعت من اللومبارديين .عاد شارلمان الى ايطاليا مرة اخرى في اواخر عام ٧٨٠ م تلبية لنداء البابا الذي اصطدم بمعارضة الحاكم البيزنطي في ايطاليا الجنوبية ، عندما طالب بأن يكون له السيادة على دوقيتي سبوليت وبينيفيان ومدينة تيراسينا (جنوب روما) غير أن التسوية التي أقرها لم تحقق شيئا من مطامع البابا الذي اضطر للاعتراف بسيادة البيزنطيين على تيراسينا والى التنازل عن دوقية سبوليت

لشارلمان الذي نصب ابنه بيبن ملكا لايطاليا وكان رد فعل البابا على ذلك أن اخذ بالتقرب الى البلاط البيزنطي .

قدم شارلمان الى ايطاليا مرة ثالثة عام ٧٨٧ لكي يخمد المؤامرات التي كان يحيكها دوق بينفيان فتم له ما أراد ، ووعد شارلمان البابا بالتخلي له عن جنوب مقاطعة توسكانا ، وأجبر دوق بينفيان على الاعتراف بسيادة رئيس الكنيسة وذلك لكي يبعده عن التحالف مع الامبراطورية البيزنطية ولكنه فيما بعد تنصل من تنفيذ ما وعد به .

وعلى هذا فقد كانت سياسة شارلمان في ايطاليا تقوم دائما على اساس تسويات موقتة مع البابا واجتناب الدخول في صراع صريح معه ، فاكتفى الكرسي المقدس بما حظي به في عهد بيبن القصير من املاك كما فرض شارلمان سيادته على قسم كبير من ايطاليا الشمالية ، وكان شارلمان يناصر البابا ويؤيده في أدارة الكنيسة برغم انه ، بصفته حامي الرومانيين ، وكان يتلقى شكاوى رعايا الدولة البحرية ، ورغم أن شارلمان كان يتدخل في الأمور الدينية والكنسية في مملكته فإنه لم يتدخل في الانتخابات الحبرية التي جرت على أثر وفاة البابا هادريان الأول عام ٧٩٥ وانتخب فيها البابا الجديد الذي حمل أسم ليون الثالث .

أعمال شارلمان التوسعية:

امضى شارلمان ثلاثين سنة في حروب دائمة . فكان في كل سنة يقود حملة الى احدى جبهات الحدود للدفاع عنها او للتوسع باحتلال أراضي جديدة ، فاضطر الى خوض حروب ضد السكسون والعرب في اسبانيا والبافاريين والافار

الحروب مع السكسون:

كانت اشد حروبه عنفا وضراوة هي تلك التي خاض غمارها ضد

السكسون الذين عادوا ، بعد أن شغلوا خلال القرن السابع باحتلال بريطانيا ، الى غزو حدود المملكة الفرنجية في مقاطعتي هس وترنج في الشمال الشرقي وقد كانت الحملة الأولى التي وجهها شارلمان ضدهم عام ٧٧٢ م حملة تأديبية على غرار الحملات التي سبق أن وجهها ضدهم شارل مارتل وبيبن القصير . ولذا اقتصر شارل على تخطي حدود هس الى مسافة قليلة ومهاجمة أحدى قلاع السكسون وتدمير معبد الشجرة المقدسة لديهم واخضاع بعض قبائل منطقة الويزر وكان رد فعل السكسون في العام التالي أن غزوا مقاطعة هس ولم يقم شارلمان بأي تدبير ضدهم قبل عام ٧٧٥ م بسبب انشغاله بالتدخل في ايطاليا ،ودفع شارلمان بقواته هذه المرة الى داخل بلاد السكسون واقام حاميات قوية في مواقع على نهر الرور غير أن السكسون استفادوا من عودته الى ايطاليا في نهاية عام ٧٧٦ م لكي يعودوا الى احتلال تلك المواقع . وفي عام ٧٧٧ م هاجم شارلمان السكسون ووصل في تقدمه حتى منابع نهر ليب واصبحت بذلك وستغاليا الجنوبية كلها تحت سيطرة الفرنجة وعلى اثر هذا النصر اخذت أفواج السكسون تقبل على شارلمان معلنة خضوعها ، واعتقد شارلمان أن الأمر قد استتب له وانه قد حان الوقت لاستبدال الجنود بالمبشرين فشجع على اقامة الأديرة والأسقفيات .

وبينما كان شارلمان في العام التالي ٧٧٨ يقاتل العرب المسلمين في اسبانيا ، قام أحد زعماء السكسون في وستغاليا واسمه فيدو كنت فحرض السكسون على الثورة ضد الفرنجة لاستعادة استقلالهم والهتهم فهاجموا الأديرة والكنائس واحرقوها وقتلوا رجال الدين المسيحيين الموالين للفرنجة ، واضطر شارلمان لاعادة اخضاعهم خلال عامي ٧٧٩ هـا ٧٨٠ م وهرب فيدو كنت الى الدانمرك ، واراد شارلمان تنظيم ادارة بلاد السكسون لكي يضمها نهائيا الى مملكته فقسمها الى كونتيات عهد بادارة كل منها الى أحد النبلاء الموالين له ، غير أن فيدو كنت رجع من الدانمرك وقاد اتباعه في ثورة جديدة وسحق جيشا فرنجيا كبيرا في معركة قتل فيها عدد كبير من كبار الفرنجة ، وقد زادت هذه الهزيمة في تصميم شارلمان

على اخضاع السكسون فقدم بنفسه على راس جيش كبير وخاض معارك عديدة مع السكسون خلال أعوام ٧٨٣ - ٧٨٥ م وطارد زعيمهم فيدو كنت حتى سواحل بحر الشمال . واضطر فيدو كنت ، بعد أن تخلى أتباعه عنه إلى الاستسلام وقبل باعتناق المسيحية بعد أن عفا شارلمان عنه وأصدر الملك الفرنجي مرسوما يعاقب بموجبه بالموت كل من يتمرد من السكسون او يعتدي على رجال الدين أو يرفض التعميد .

إن فرض اعتناق المسيحية بالقوة دفع السكسون إلى الثورة من جديد منذ عام ٧٩٢ ولم يتمكن شارلمان من إخضاعهم نهائيا إلا بعد اربع حملات بين سنتي ٧٩٤ و ٧٩٧ ولا سيما بعد أن لجأ الى نقل السكسون ، الثائرين من بلادهم وتوطينهم في مناطق أخرى داخل المملكة الفرنجية واستعاض عنهم بالفرنجة أو بجماعات موالية لهم.

الحرب مع العرب في اسبانيا:

عندما كان شارلمان في بلاد السكسون ٧٧٧م جاء والي مدينة سرقسطة العربي الذي كان مشتركا في مؤامرة قيل كان يدعمها الخليفة العباسي في بغداد ضد الأمير عبد الرحمن ، إلى بلاط شارلمان يطلب المساعدة ، وبذلك أعطى شارلمان فرصة التدخل بين المسلمين ومن ثم الذهاب الى اسبانيا وتوسيع حدود مملكته إلى ما وراء جبال البيرنيه، ولذا اعد في عام ٧٧٨ حملة مؤلفة من جيشين دخل احدهما بقيادة شارلمان نفسه إلى مقاطعة نافار بعد اجتياز البيرنيه الغربية بينما اجتاز الجيش الأخر البيرنيه الشرقية وتقدم في مقاطعة كاتالونيا بعد احتلال مدينتي جيرونة وبرشلونة على الساحل الشرقي ، والتقى الجيشان أمام أسوار سرقسطة التي رفض واليها الجديد تسليمها ودافع عنها بشجاعة ملحقا بالفرنجة خسائر فادحة ، وعندما علم شارلمان بقدوم الأمير عبد الرحمن لنجدة مدينة سرقسطة خشي من التطويق فأثر التراجع والانسحاب من اسبانيا ،

وبينما كانت مؤخرة جيشه مارة في ممر رونسفو الضيق في جبال البيرنيه اثناء تراجعها فاجأها العرب والباسك (البشكنس) الجبليون بالانقضاض عليها وابادتها ، وكان بين القتلى حاكم بند بريتاني المدعو رولان والذي أصبح من أبطال الفرنجة الأسطوريين ، وخلدت ذكراه في اشعار الملاحم الفرنجية التي حملت اسم «نشيد رولان»

اراد شارلمان الثأر لكارثة رونسفو فوجه حملة جديدة إلى اسبانيا عام ٧٨٥ م استولت على مدينة جيرونة والمنطقة الساحلية الشرقية المكملة لمنطقة سبتيمانيا .غير أن المسلمين استرجعوا ما استولى عليه الفرنجة وطردوهم خارج اسبانيا ولاحقوهم حتى ما بعد مدينة نربونة في جنوب فرنسة ومن ثم توجهوا نحو قرقشونة فالتقوا بجيش للفرنجة يقوده غليوم كونت مدينة تولوز وابن عم شارلمان وكان النصر في المعركة التي دارت بين الطرفين الى جانب العرب المسلمين وقتل فيها غليوم ، ولكن العرب لم يحتفظوا بفتوحاتهم في جنوب فرنسا بل عادوا الى اسبانيا .

وعاد الفرنجة إلى مهاجمة اسبانيا عام ٧٩٥ وتوصلوا الى احتلال برشلونة عام ٨٠١ م ودعا الفرنجة هذه المنطقة الساحلية التي احتلوها في اسبانيا غوتالانيا او بالحري بلاد كاتالونيا اي «بلاد القوط.

اخضاع بافاريا والآفار:

اعلن تاسيلون دوق بافاريا استقلاله عن ملك الفرنجة منذ أواخر عهد بيبن القصير في عام ٧٦٣ م ولكن شارلمان اجبره في عام ٧٨١ م على الرجوع إلى الانطواء تحت سيادته غير أن متاعب شارلمان مع السكسون والمؤامرات التي كانت تحاك ضده في ايطاليا دفعت تاسيلون الى اضطهاد الموالين لشارلمان في با فاريا ثم الى الثورة عام ٧٨٧ م ، ولما هدده البابا بالحرمان رجع الى الطاعة وحلف ، هو وشعبه ، يمين الولاء لملك الفرنجة ، بيد انه تحالف في العام

التالي مع الأفـار الوثنيين ومـع البيزنطيين ضـد شـارلمان فتخلى اتباعه عنه وحكم عليه البلاط الملكي بالموت غير أن شارلمان عفا عنه وسجنه في عدة اديرة ، ولم يخرجه منها قبل عام ٧٩٤ م حيث اعلن تنازله عن كل حـق له في دوقية بـافاريا التـي ضـمت الى المملكة الفرنجية .

أدى تحالف تاسيلون مع الآفار بهذه القبائل المغولية الأصـل الى تجديد غزواتها على الغرب ، ولذا قرر شارلمان التخلص من خطرهم باخضاعهم فوجه اليهم منذ عام ٧٩١ م عدة حمـلات ضـارعت في ضراوتها الحملات ضد السكسون . وتم له في عام ٧٩٥ م قهـرهم حيث لم يبق أمامهم سوى الخضوع أو الالتجاء الى البلغار .

تتويج شارلمان امبراطورا :

في يوم ٢٥ كانون الأول مـن سـنة ٨٠٠ م (أي يوم الميلاد)تـوج البابا ليون الثالث شارلمان امبراطورا على الغرب في كنيسة القديس بطرس في روما ، ولكن قبل أن نبحـث في حـادثة التتـويج هـذه لنستعرض ما تقدمها من الحوادث التي تتعلق بـالكرسي المقـدس في روما ، والتي ترتبط بها ارتباطا مباشرا .

في عام ٧٩٥ توفي البابا هادريان الأول فانتخب خلفا له البـابا ليون الثالث الذي كان يمثل البيرقراطية الرومانية ، ويبدو أنه شـعر منذ الأيام الأولى لتوليه منصب البابوية بمعـارضة انصـار البـابا الراحل ، وهذا ما يفسر وقوفه منذ البـداية مـوقف التـابع نحـو شارلمان حامي الرومانيين ، فقد سـارع الى ارسـال مندوبين الى الملك الفرنجي يحملون اليه إعلامـا بـانتخاب البـابا ليون الثـالث ومفاتيح كنيسة القديس بطرس وعلم مدينة روما ، وقد يكون ارسال مفاتيح الكنيسة نوعا من المجاملة ، أما ارسال العلم فهـو دليل على الاعتراف بشارلمان قائدا للكنيسة وانه القاضي الأعلى في روما ، كما أن إرسـال العلم إليه ، وهـو الذي كان يوجـه عادة الى الأبـاطرة

البيزنطيين ، يعني أن البابا بات يعد شارلمان ندا لأولئك الأباطرة ، يضاف الى ذلك أن ليون الثالث طلب من شارلمان أن يرسل أحد أعيان بلاطه الى روما ليتلقى عن الرومانيين يمين الولاء والأخلاص له .

وقد أوفد شارلمان أحد المقربين اليه وهو انغلبيرت إلى البابا مع رسالة تحدد بدقة واجبات وسلطات كل من البابا وحامي الرومانيين : يقوم الأول بالصلاة والدفاع ويمارس الثاني السلطة الفعلية ، وقد قبل البابا ليون الثالث بهذا التحديد والفصل بين السلطات حتى أنه عبر عنها في قطعة فسيفساء في قصر اللاتران تمثل القديس بطرس وهو يقدم الوشاح (رمز السلطة الدينية والكهنوتية) الى ليون الثالث والعلم (رمز السلطة العسكرية والقضائية)الى شارلمان .

والواقع ان البابا الجديد ترك شارلمان يهيمن على جميع الشؤون الادارية في الكنيسة .

ويبدو ان مبادل ليون الثالث كانت ذات اثر في دفعه الى ذلك الخضوع لشارلمان الذي كتم عدة شكاوي وردته عام ٧٩٨ م عن سوء سلوك البابا خشية اثارة فضيحة . وفي ٢٥ نيسان عام ٧٩٩ اتهم اثنان من اقرباء البابا المتوفى وكبار موظفي الكنيسة ليون الثالث بالتجديف والزنا وهجما عليه اثناء احتفال ديني محاولين قلع عينيه ، ولم ينقذه من ذلك سوى تدخل المقيم الفرنجي ، وسارع ليون الثالث بعد نجاته ، إلى الذهاب الى بلاط شارلمان الذي اعاده إلى روما بصحبة عدد من كبار رجال الدين الفرنجة والكونتات وطلب اليهم اجراء تحقيق في الأمر ، وفي اواخر عام ٨٠٠ م قدم شارلمان بنفسه الى روما وبعد اسبوع من وصوله اليها ، اي في اول كانون الأول ، عقد محاكمة علنية ونظرا لصعوبة اصدار حكم في القضية تقرر الاستماع الى الاتهامات الموجهة الى البابا في جلسة علنية وبعد ذلك يحلف البابا يمينا بأن بريء من تلك الاتهامات،وهذا ما جرى في كنيسة القديس بطرس يوم ٢٣ كانون الأول

عام ٨٠٠ م وعلى الأثـــــر قبض على المتهمين وســـــلما إلى الجلاد ،ولكن البابا توسط للعفو عنهما والاكتفاء بنفيهما الى فرنسا.

لايمكن فصل ما جرى في كنيسة القديس بـطرس يوم ٢٣ كانون الأول عن حادثة التتويج في الكنيسة نفســها بعــد يومين بــرغم مــا بينهما من خلاف في طبيعة كل منهما، ولدينا خمس روايات حول مــا حدث يوم عيد الميلاد ، انها تتفق جميعا على القول بأن شارلمان كان اثناء قداس يوم عيد الميلاد عام ٨٠٠ م يصلي راكعا امــام ضريح القديس بطرس ، وبينما كان الملك ينهض وضع البــابا على راســه تاجا وهتــف الشــعب الرومــاني مناديا :«الحياة والنصر لشــارل المجيد ، الــذي توجه الرب على الرومانيين امبراطورا عظيما ومحبــا للسلام» . وقدم له البابا ايات التعظيم والاحترام كما كانت العادة في عصر الأباطرة الماضين ومنذ ذلك الوقت حمل شارلمان لقب امبراطور وأغسطس بدلا من لقب حامي الرومانيين .

ولكن هذه الروايات تختلف حول من كان صــاحب الدور الأول في حادثة التتويج وموقف شارلمان منها ، فبعضــها يعــزو الدور الأول والمبادرة في التتويج إلى البــابا الذي وضــع التــاج بيديه على راس شارلمان ، وللشعب الروماني دون أن يبدو على شارلمان اثراً الدهشة او الاستياء اما بعضها الآخر «فيقول بأن البابا توج شــارلمان دون أن يكون له أي (شارلمان) علم مسبق بما سيجري »، بينما ذهــب ايكنهارد صاحب كتاب «حياة شارلمان» الى القول بأن الملك الفرنجي كان مستاء الى حد انه لو كان يعلم بما سيجري ذلك اليوم لما دخــل الى كنيسة القديس بطرس .

وأدى الخلاف بين الروايات التي روت حادثة التتويج الى انقسام اراء المؤرخين المحدثين وعدم اتفاقهم ، ومع هذا يرجح أن شــارلمان كان على اتفاق مع البابا ومختلف الجماعات التــي حضرت بشــأن التتويج وأن الاحتفال اتفق عليه مسبقا ليتضمن : هتــاف الشــعب ومناداته بشارلمان امبراطورا ثم التتويج مع تقــديم ايات التعــظيم والاحترام ، غير أن البابا قلب هذا الترتيب بأن جعل التتويج يسبق

الهتاف الشعبي لكي يجعل لنفسه دورا رئيسيا في التتويج ، وهذا ما ادى الى استياء شارلمان الذي كان ينوي ، على ما يبدو ، أن يضع التاج على رأسه بنفسه بعد أن يتناوله من البابا لكي لايدع لهذا الأخير أي حجة للادعاء بسلطة تعلو سلطة الامبراطور ، ويؤيد هذا الراي أن شارلمان عندما توج ابنه لويس فيما بعد في عام ٨١٣ م لم يدع البابا او أحد ممثليه لحضور حفل التتويج ووضع بيديه التاج الامبراطوري على رأس ابنه .

اختلف المؤرخون المحدثون ايضا حول ما هية هذه الامبراطورية التي أنشأها شارلمان ، ويبدو أن شارلمان نفسه كان مترددا حول هذا الموضوع اذ انه ظل يحكم سنتين بعد تتويجه دون أن يستخدم لقبه الجديد ولعله كان يتساءل عن حقيقة هذا اللقب وعما يعمل به .

لقد عرفت اوربا الغربية حتى ذلك الوقت نوعين من الأمبراطورية وهما الامبراطورية الرومانية القديمة الكبرى وامبراطورية الغرب ، فهل كان المسؤولون عن تتويج شارلمان يهدفون الى اعادة الأمبراطورية الرومانية الكبرى أم اعادة امبراطورية الغرب ؟ ترجح بعض الروايات أن الهدف كان احياء الأمبراطورية الكبرى لأنه لم يعد يوجد امبراطور في بلاد الاغريق واصبح هؤلاء تحت سيادة امراة وشغر عرش الامبراطورية في الغرب وفي الشرق حيث كانت ايرين تحكم بعد اغتصابها لعرش ابنها قسطنطين السادس ، ولكن مثل هذا الأدعاء كان سيؤدي بلا ريب الى حرب مع البيزنطيين ، وهذا ما لم يكن يرغب شارلمان فيه بل على العكس كان يسعى الى انشاء علاقات ودية مع بيزنطة منذ عام ٧٩٣ م في عهد قسطنطين السادس الذي كان يحكم تحت وصاية امه ايرين ، ففي عام ٧٩٧ م استقبل شارلمان سفراء بيزنطة استقبالا رائعا ، وعندما عزلت ايرين ابنها قسطنطين عن العرش عام ٧٩٨ م وتولت الحكم بنفسها لم يظهر شارلمان اي استنكار لهذا العمل ، وفي السنة التالية استقبل سفراء مغتصبة العرش بمظاهر الحفاوة والتكريم ، وهذا كله لا يدل على نوايا عدوانيبة بل سعى شارلمان إلى إعادة الوحدة بين قسمي

الأمبراطورية الرومانية القديمة بطريقة سامية وهي الزواج بين صاحبي السلطة فيهما ، ولذا ارسل شارلمان عام ٨٠٢ م بموافقة البابا ليون الثالث سفراء عنه إلى القسطنطينية للمفاوضة بشأن زواجه من ايرين ، ولكن هذا الحلم الجميل لم يتحقق لأن ثورة نشبت في القسطنطينية بعد وصول سفراء شارلمان اليها بقليل واطاحت بالامبراطورة ايرين ، ورفض الأمبراطور البيزنطي الجديد ، نقفور الأول ،الاعتراف باللقب الامبراطوري لشارلمان ولم يعد شارلمان يطمح الى أكثر من اجبار نقفور على الاعتراف له بذلك ، واستفاد شارلمان من متاعب نقفور في حروبه مع العباسيين في الشرق لكي يحتل منطقة البندقية ود الماسيا ويستخدمها وسيلة للضغط على بيزنطة ، وقد تم له ما أراد في المعاهدة التي بدا التفاوض عليها بينه وبين نقفور عام ٨١١ م - ليعترف له نقفور بلقب امبراطور مقابل اعادة البندقية ود الماسيا وتم عقد هذه المعاهدة في عهد خلفاء نقفور حيث تقرر وجود امبراطورين يعد احدهما الآخر بمثابة اخ له فهي أعادت وضعا شبيها بوضع الامبراطورية بعد موت تيودور عام ٣٩٥ م،على هذا إن الامبراطورية التي أعاد شارلمان انشاؤها هي امبراطورية الغرب ، ويؤكد ذلك أن شارلمان كتب يقول : «تبارك الله الذي أحل السلام المنشود بين امبراطورية الشرق وامبراطورية الغرب » ولكن امبراطورية الغرب هذه ليست مجرد اعادة لامبراطورية الغرب الرومانية بل هي تكوين اصيل لامبراطورية الغرب الفرنجية .والواقع ان شارلمان :

١ - لم يفكر قط في جعل روما عاصمة لحكمة ، ولم يحاول ان تكون ايطاليا مركز الثقل في امبراطوريته ، بل اتخذ عاصمة له مدينة ايكس لا شابل (اخن) وهي مدينة جرمانية محصنة ، كما كان مركز الثقل في امبراطوريته املاكه الفرنسية - الجرمانية ولم تعد ايطاليا أكثر من مقاطعة ملحقة بها .

٢ - لم يحاول شارلمان ، كغيره من زعماء البرابرة الماضين ،

الظهور بمظهر الأباطرة الرومان ، فقد حافظ على لباسه الفرنجي ونادرا ما كان يرتدي الشارات الامبراطورية ، ومع انه كان يتقن اللاتينية ، كان يتكلم باللهجة الجرمانية الفرنجية وكان فخورا بها .

٣ - كان اللقب الرسمي الذي استخدمه شارلمان بعد تتويجه هو «شارلمان المجيد اوغسطس ، توجه الله امبراطورا عظيما ومسالما وحاكما للامبراطورية الرومانية ، وملكا على الفرنجة وعلى اللومبارديين برعاية الرب» ، فهو امبراطور يحكم الامبراطورية الرومانية وهو يعتز بذلك ، ولكنه ليس امبراطورا رومانيا بل فرنجيا .

انصرف شارلمان بعد تتويجه امبراطورا الى الاهتمام بالنواحي التشريعية والادارية في امبراطوريته ، واقتصرت أعماله الحربية على اتمام ما بدأ به قبل التتويج ومتابعته كاخضاع السكسون والحملات على اسبانيا المسلمة

ويظهر مفهوم شارلمان عن السلطة من القابه التي ذكرها في القرارات والمراسيم الملكية ، فهو رأى انه كان يتمتع بكل السلطات بحكم كونه ملكا بموجب الحق الالهي ، ورأى ان السلطة واجب و / لتزام تتمثل في الخارج بواجب الدفاع عن الكنيسة وعن رئيسها الروحي البابا ، ونشر المسيحية بين الوثنيين وتتمثل في الداخل بواجب احلال السلم واقرار النظام وقد عمل شارلمان خلال حكمه على تحقيق هذا الواجب ، فكان نشر المسيحية والدفاع عنها شغله الشاغل ، لم يدع وسيلة الا واستخدمها لهذه الغاية سواء بالحرب والارغام او التبشير ، وكان يحترم رئيس الكنيسة الرومانية ويجله ، ولكن هذا لم يكن يمنعه من القبض على زمام الكنيسة والتدخل في قضاياها ومشاكلها ، ودعوة المجامع الدينية لمعالجة تلك المشاكل وفرض رأيه الخاص احيانا .

ويبدو أن مفهوم شارلمان عن فكرة الأمبراطورية بقي فهما متأثرا بالتقاليد الجرمانية الفرنجية . ولذا نرى شارلمان يلجأ عام ٨٠٦ م الى تقسيم امبراطوريته بين أولاده الثلاثة : شارل ولويس وبيبن .

ولم ينقذ الأمبراطورية من التجزئة سوى موت ابنيه شارل وبيبن خلال حياته فلم يبق سوى واحد هو لويس توجه شارلمان امبراطوريا عام ٨١٣ .

وفي حزيران من عام ٨١٤ م توفي شارلمان عن إحدى وسبعين سنة من العمر بعد حكم حافل بالاعمال الجليلة .

٥ ـ انحلال الامبراطورية الكارولنجية: لويس التقي (٨١٤ ـ ٨٤٠)

كان للامبراطورية التي انشأها شارلمان بجهوده الخاصة ان تستمر بعده اذا كان خليفته يضارعه في قوة شخصيته وفي دأبه ونشاطه ، ويبدو ان مفهوم شارلمان نفسه عن فكرة الامبراطورية بقي بعيدا عن المفهوم الروماني الذي يعد الامبراطورية وحدة أرضية ذات كيان مستقل عن الشخص الذي يمارس السلطة ، فقد ظل شارلمان متأثرا بالمفهوم الجرماني الذي كان يرى في المملكة ملكا شخصيا للملك ، فهو نفسه لم يكن يفكر بالمحافظة على الوحدة الأرضية للامبراطورية التي انشأها إذ انه قام عام ٨٠٦ م بتنظيم خلافته وذلك بتقسيم امبراطوريته بين ابنائه الثلاثة على الوجه التالي :

١ - شارل : يأخذ شمال فرنسا وشمال المانيا
٢ - لويس : فرنسا الجنوبية مع تخوم الجبهة الاسبانية .
٣ - بيبن : جنوب المانيا وايطاليا .

ولم تحتفظ الامبراطورية بوحدتها قبل موت شارلمان في ٢٨ شباط ٨١٤ م إلا لأن ابنيه شارل وبيبن ماتا قبله وبقي لويس وحده وريثا لابيه ، ولذا فقد اشرك شارلمان ابنه لويس معه في الحكم منذ عام ٨١٣م حيث توجه امبراطورا بنفسه في ايكس شابل (آخن) . وكان الاحتفال بالتتويج احتفالا علمانيا لم يحضره البابا بل ولم يكن ممثلا فيه وحضره بعض الاساقفة بصفتهم من كبار رجال المملكة مثل الكونتات لا بصفتهم الدينية ،وقد يكون هدف شارلمان من ذلك تأكيد استقلال ابنه تجاه الكنيسة.

كان لويس قبل تتويجه ملكا لأكيتانيا ، وساهم في حروب السكسون وقاد الحملات الأخيرة في اسبانيا ، وكان واسع الثقافة شديد التقى والورع حتى لقب بالتقي . ولكنه لم يكن بالشخص الذي يستطيع متابعة سياسة شارلمان ، لأنه كان ضعيف الشخصية تسيطر عليه الوساوس الدينية التي كانت تشل ارادته وعزيمته في أغلب الأحيان ، وقد أحاط به بعد توليه العرش إثر موت أبيه عدد من المستشارين من رجال الدين الذين كانوا يحملون فكرة سامية عن الامبراطورية فاقتصر على لقب «امبراطور اوغسطس برعاية الله » دون الألقاب الأخرى التي كان يستخدمها أبوه مؤكدا بذلك أفضلية الامبراطورية ، وقد حافظ على وحدة أراضي الامبراطورية بالدفاع ضد الدانمركيين وقمع الثورات في بريتاني ، وفي عام ٨٢٤ وجه حملة الى بمبلونة في اسبانيا ولكنها انتهت بكارثة نتيجة هزيمتها أمام العرب وكادت تؤدي الى فقدان بنود الجبهة الاسبانية لولا الحملة التي قادها برنارد كونت سبتيمانيا .

وعمل لويس منذ توليه الحكم على اصلاح أخلاق وعادات البلاط فطرد اخواته من القصر وارغمهن على الرهبنة ، وأقصى مستشاري والده السالفين ، وقرب حاشيته الاكيتانية . ودعا الى عقد مجمع ديني وأصدر قرارات بتنظيم الاكليروس العصري والاكليروس النظامي . ولكن لويس لم يستطع اتباع خطة أبيه في العلاقات التي أقامها بين سلطات الأمبراطور العليا وسلطات الكرسي المقدس ، فأبدى البابا ميلا الى الاستقلال عن الامبراطور بل انصرف الى اعتبار نفسه في مقام الأمبراطور .

جرى تتويج لويس امبراطورا بدون استشارة البابا ليون الثالث كما سبق أن رأينا ، وقد تجاهل البابا ذلك أيضا ولم يطلب الى الرومانيين اداء يمين الولاء للامبراطور الجديد ، وعندما اخفق أعداء ليون الثالث في مؤامرتهم لاغتياله عام ٨١٥ م قبض عليهم وحاكمهم وأعدمهم دون الرجوع الى الامبراطور الذي اكتفى بطلب بعض الايضاحات عن القضية . وأرسل ايتين الرابع الذي خلف

ليون الثالث اعلاما الى الامبراطور بانتخابه ، ولكنه لم ينتظر «التثبيت» منه لكي يستلم منصبه رسميا وفقا لما كانت عليه العادة المتبعة قديما . واغتنم البابا الجديد فرصة لقائه بالامبراطور في مدينة رانس عام ٨١٦ لكي يتوجه من جديد . وقد كان هذا بالنسبة للويس مجرد تثبيت لتتويجه ، أما بالنسبة للكرسي المقدس فقد كان اعادة لما جرى يوم ٢٥ كانون الأول عام ٨٠٠ وتأكيدا لتفوق سلطة الكرسي المقدس أو السلطة الروحية على سلطة الامبراطور أو السلطة الزمنية ، وفي عام ٨١٧ تلقى البابا باسكال الأول من لويس تأكيدا بتوفير حماية الامبراطور للبابا ولدولة الكرسي المقدس وبتخلي الامبراطور عن أي تدخل في الانتخابات الحبرية أو في التشريعات الرومانية .

غير أن الفضائح التي كان يثيرها البابوات في روما سمحت للوثر ابن لويس أن يصدر عام ٨٢٤ م «الدستور الروماني » الذي يلغي امتيازات عام ٨١٧ وهو يتلخص في :

١ - امتناع البابا عن استعمال الشدة ضد الأشخاص الذين يتمتعون بحماية الامبراطور .
٢ - حق الرومانيين في اختيار القانون اللومباردي أو القانون الفرنجي .
٣ - اخضاع الادارة الرومانية الى رقابة مفتشين يعين الامبراطور أحدهما ويعين البابا الآخر ، ويرفع المفتشان تقريرا سنويا إلى الامبراطور بعد انتخابه وقبل تثبيته .
٤ - على البابا أن يؤدي اليمين أمام مبعوث الامبراطور بعد انتخابه وقبل تثبيته .

وكان هذا الدستور ظفرا للسلطة الامبراطورية ، ولكن البابوات سيستفيدون من المنازعات بين أفراد العائلة الكارولنجية لكي يقلبوا الوضع وتكون لهم اليد العليا .

المنازعات العائلية وتقسيم الامبرا طورية:

اراد لويس أن يؤمن كما فعل ابوه تنظيم خلافته اثناء حياته ، ولذا فقد اشرك معه في الحكم ابنه البكر لوثر وتوجه امبراطورا وظهر اسمه الى جانب اسم ابيه في المراسيم والقرارات الامبراطورية.وفي الوقت نفسه منح لويس حصة من الامبراطورية لكل من ابنيه الآخرين بيبن ولويس مع لقب ملك . فنال بيبن مقاطعات اكيتانيا وسبتيمانيا وبورغونيا ونال لويس مقاطعات بافاريا وكارتينا وبوهيميا وكرواتيا ، وحافظ ظاهريا على وحدة الامبراطورية بأن اشترط على بيبن ولويس أن يكونا تابعين لاخيهما البكر الذي يحمل وحده لقب امبراطور وواجب عليهما اطاعته .

غير ان هذا الترتيب لم يتحقق لان لويس تزوج عام ٨١٩ من اميرة بافارية وضعت له ولدا رابعا سمي شارل (٨٢٣) فتوجب اعادة التقسيم لمنح الولد الجديد حصة من الأرث ، وبعد التقسيم الجديد(٨٢٩)ابعد لوثر الى ايطاليا وحذف اسمه من المراسيم والامبراطورية تحت تأثير زوجة ابيه كما ابعد مستشارو الامبراطورية السالفون .

وعلى الاثر تشكل حول لوثر حزب معارض للامبراطور والامبراطورة واعوانهما يضم المستشارين السالفين وبعض رجال الكنيسة ، وثار لوثر ضد ابيه وايده في ثورته اخواه بيبن ولويس كما ايده البابا الذي وضع كل جهوده ضد الامبراطور لكي يؤكد تفوقه عليه وأرسل كتبا الى الأساقفة الذين كانوا يؤيدون الامبراطور يدعوهم فيها الى عصيان اوامر الامبراطور واطاعة أمر الكرسي المقدس ، لأن سلطة الكرسي المقدس الروحية اعلى من سلطة الامبراطور الزمنية ، وقد اضطر الامبراطور العجوز عام ٨٣٣ بعد هزيمته امام ثورة ابنائه وانقلاب رجال الدين ضده الى الاعتراف العلني باخطائه ثم تخلى أمام مذبح كنيسة سان - ميدار في سواسون عن شارات الامبراطورية ، ونزع سيفه وتاجه وارتدى

ثياب التوبة وانزوى بعد ذلك في أحد الأديرة ونفيت زوجته البافارية وسجن ابنها شارل في أحد الأديرة .

إن هذا الاذلال الذي لقيه الامبراطور لويس اكسبه انصارا عطفوا عليه مما شجعه في العام التالي (٨٣٤) على الهرب من الدير واستعاد شارات امبراطوريته والتاج الامبراطوري وعاد الى تقسيم الامبراطورية معطيا النصيب الأكبر لابنه الصغير شارل ، فتكررت ثورة ابنائه الآخرين وتكرر التقسيم وفي كل مرة يصبح نصيب شارل الصغير أكبر من المرة السالفة . واخيرا وفي عام ٨٤٠ م مات الامبراطور أثناء عودته من قتال ابنه لويس في جرمانيا وكان قبل موته قد أرسل شارات الامبراطورية الى ابنه البكر لوثر.

معاهدة فردان:

دب الخلاف بين الأخوة بعد موت لويس التقي وسبب ذلك ان لوثر الذي حصل على التاج واللقب الامبراطوري اراد ان يفرض سلطته على اخويه الآخرين لويس وشارل (الأخ الرابع بيبن توفي منذ عام ٨٣٨) فاتحدا ضده واقسم كل منهما على مساعدة الآخر والا يعقد أحدهما اتفاقا مع لوثر يلحق به الضرر (قسم سترا سبورغ..).
وقد أدى لويس القسم باللغة الرومانية امام جنود أخيه شارل الاصلع والذي أدى القسم بدوره باللغة الجرمانية أمام جنود أخيه لويس . ويعتبر نص هذين القسمين أقدم الوثائق الكتابية باللغتين الفرنسية والالمانية .

واخيرا وبعد هزيمة لويس عام ٨٤٣ اتفق الاخوة الثلاثة في معاهدة عقدت في مدينة فردان على اقتسام الامبراطورية على الوجه التالي :
١ ـ ينال لويس الجرمني جميع الاراضي الواقعة الى شرق نهر الراين مع بعض المزارع على الضفة اليسرى من النهر .

٢ ـ ينال شارل الأصلع معظم الاراضي الواقعة الى الغرب من انهار الايسكو والموز والصون والرون يضاف اليها الجبهة الاسبانية.
٣ ـ ينال لوثر الشريط المحصور بين مملكتي اخويه مع ايطاليا ويمتد هذا الشريط من بحر الشمال حتى البحر المتوسط ويشتمل على العاصمتين روما وايكس لاشابيل، ويحتفظ لوثر باللقب الامبراطوري دون أن يمنحه ذلك اي سلطة على اخويه اللذين اصبحا مساويين له.

وقد استند هذا التقسيم الى اساسين هما :
١ ـ تأمين حصص متكافئة في وارداتها لكل من الاخوة
٢ ـ اشتمال حصة كل منهم على الاراضي التي كانت تحت سيادته من قبل . ولقد كانت معاهدة فردان حادثا هاما في تاريخ أوربا الغربية.

فقد قضت هذه المعاهدة نهائيا على الوحدة الأرضية في الغرب، وتكونت منذ ذلك التاريخ الاطر الجغرافية لدولتين متمايزتين عن بعضهما من حيث اللغة،كما اتضح ذلك في قسم ستراسبورغ ، واخذت كل منهما تعيش حياتها الخاصة وتصنع تاريخها الخاص وهما الدولتان اللتان ستحملان فيما بعد اسم فرنسا والمانيا.

٤ ـ الممالك الفرنجية وأواخر الكارولنجيين

قضت معاهدة فردان على الوحدة الأرضية للامبراطورية الكارولنجية وادت الى ايجاد ثلاث ممالك مستقلة . وسنرى فيما يلي تطور كل منها حتى نهاية عهد السلالة الكارولنجية :

١ ـ مملكة لوثر (لوثرنجيا)

حصل لوثر كما راينا على الاراضي التي كانت تؤلف شريطا يمتد من بحر الشمال حتى البحر المتوسط وقد عرفت فيما بعد باسم لوثرنجيا وتألفت هذه المملكة من ثلاث وحدات جغرافية متمايزة

هي :
ا ـ اللورين (مشتقة من لوثرنجيا)
ب ـ شمال ايطاليا في الجنوب .
ج ـ حوض نهر الصون وحوض الرون في الوسط
وتشمل بورغونيا ودوقية ليون وبروفانس

كان لوثر الذي حصل على اللقب الامبراطوري ايضا شديد التعلق بفكرة وحدة الامبراطورية ، ولذا حاول أن يقلب التعاون الأخوي الذي كان قائما بينه وبين أخويه الآخرين ويستبد له بفرض سيادة لوثرنجيا على المملكتين المجاورتين .

ولكنه لم ينجح في مسعاه ، كما لم ينجح في المحافظة على وحدة مملكته ذاتها فقد عهد الى ابنه البكر لويس بحكومة شبه الجزيرة الايطالية ومنحه لقب ملك ايطاليا (وفي عام ٨٥٠ م)منحه اللقب الامبراطوري ، وفي عام ٨٥٥ قسم لوثر ، قبل موته بوقت قصير مملكته بين أولاده الثلاثة : لويس الثاني الذي احتفظ بإيطاليا ، ولقب امبراطور ولوثر الثاني الذي حصل على اللورين وبورغوينا وشارل الذي نال دوقية ليون وبروفانس . ولكن شارل مات شابا عام ٨٦٣ ، واقتسم أخواه الباقيان حصته فأخذ الامبراطور لويس الثاني بروفانس وأخذ لوثر الثاني دوقية ليون .

وبعد قليل طرحت قضية خلافة لوثر الثاني وذلك أن زوجته كانت عقيما لم تنجب له وريثه فأراد طلاقها للتزوج من خليلته التي وضعت منه ولدا ، ولكن عمه شارل الأصلع عارض هذا الطلاق طمعا في وراثة مملكته ، وانضم اليه في ذلك العم الآخر لويس الجرماني ، وتدخل البابا في هذه القضية مؤيدا موقف شارل الأصلع ولويس الجرماني ، وأخيرا مات لوثر الثاني عام ٨٦٩ م بعد صراع دام عدة سنوات انهكت قواه دون أن يتحقق مسعاه ، وكان من المفروض أن تنتقل مملكته الى أخيه الامبراطور لويس الثاني فتعود بذلك وحده مملكة لوثرنجيا ولكن هذا الأخير كان مشغولا في الحروب ضد المسلمين في جنوب ايطاليا مما ترك المجال فسيحا امام شارل

الأصلع ولويس الجرماني للاتفاق عام ٨٧٠ على اقتسام اللورين فحصل شارل الأصلع على اللورين الواقعة قرب نهر الموز والموزيل وعلى دوقية ليون وحصل لويس الجرماني على اللورين الشرقية وأصبحت بذلك مملكتا فرنسا والمانيا متجاورتين . ثم اضطر احفاد شارل الأصلع للتخلي عن القسم الغربي من اللورين الى لويس الشاب ابن لويس الجرماني فأصبحت اللورين كلها ملحقة بمملكة المانيا . وبقيت اللورين فيما بعد محورا للتنازع بين مملكتي فرنسا والمانيا خلال عصور طويلة .

وفي عام ٨٧٥ م مات الامبراطور لويس الثاني فسارع عمه شارل الأصلع الى احتلال مقاطعة بروفانس وعهد بحكمها مع دوقية ليون الى ابن حميه بوزو الذي مالبث أن استقل في حكمها وانتخب ملكا على بورغوينا وبروفانس عام ٨٧٩ م بعد موت شارل الأصلع . وخلفه ابنه لويس الأعمى (٨٨٧ ـ ٩٢٨)الذي اعترف بسيادة ملوك جرمانيا ، ثم قام بحملة الى ايطاليا واتخذ لنفسه لقب ملك ايطاليا وحصل على لقب امبراطور بين عامي ٩٠١ ـ ٩٠٥ وظلت بورغوينا و بروفانس تؤلفان مملكتين مستقلتين ، تتوحدان حينا وتنفصلان حينا آخر ، حتى أواسط القرن الحادي عشر .

٢ـ مملكة لويس الجرماني (جرمانيا) :

حصل لويس الجرماني بموجب معاهدة فردان عام ٨٤٣ على الاجزاء الواقعة الى شرق نهر الراين وبعض المزارع الواقعة على الضفة الغربية منه ، وقد عمل لويس الجرماني على توطيد سلطته في مملكته ، فقام بعدة حملات لاخضاع الأقوام القاطنة في الشمال كما خاض حربا ضد البلغار الذين هاجموا مملكته عام ٨٥٣ م ، وعمل ايضا على توسيع رقعة مملكته فاقتسم مع أخيه شارل الأصلع ، كما مر من قبل اللورين بعد موت ملكها لوثر الثاني دون وريث وفي عام ٨٥٨ م انتهز فرصة انشغال أخيه شارل الأصلع في الصراع ضد الغزاة النورمان لكي يهاجم مملكة فرنسا دون أن يلقى أي مقاومة وكاد ان يتم له الأمر فيها بعد هرب شارل الأصلع لولا أن

الأساقفة رفضوا الموافقة على تتويجه ومباركته ملكا على فرنسا مما اضطره الى التراجع والمصالحة مع اخيه شارل عام ٨٦٠ م ، وكانت هذه الحرب اول حرب بين فرنسا والمانيا . وساءت العلاقات بين لويس الجرماني وشارل الأصلع من جديد بعد أن حصل شارل على التاج واللقب الامبراطوريين عام ٨٧٥ م وقام لويس بمهاجمة فرنسا مرة ثانية ولكنه مات في عام ٨٧٦ م ، واقتسم كارلومان ولويس الشاب وشارل السمين ابناء لويس الجرماني مملكة أبيهم بعد وفاته ودخلوا في مرحلة من النزاعات استمرت الى ان استعادت مملكة جرمانيا وحدتها تحت سيادة شارل السمين عام ٨٨٢ م بعد موت اخويه كارلومان ولويس الشاب عامي ٨٨٠ و ٨٨٢ م وكان شارل السمين قد حصل قبل ذلك على لقب ملك ايطاليا عندما استنجد به البابا عام ٨٧٩ لصد هجمات المسلمين على ايطاليا ، وفي عام ٨٨١ م توجه البابا امبراطورا للغرب خلفا لشارل الأصلع ، كما ان كبار مملكة فرنسا انتخبوه ملكا بعد موت كارلومان حفيد شارل الأصلع وعادت بذلك الوحدة نظريا الى امبراطورية شارلمان ، ولكن ضعف شارل السمين وتخاذله امام كبار رجالات المملكة وانحطاطه الأخلاقي وإصابته بنوبات الصرع جعلته عاجزا عن القيام بالدور الذي كان يتطلبه منه منصبه ، وعندما قدم الى فرنسا على راس جيش كبير لصد النورمان وتحرير باريس من حصارهم اثر شراء رحيلهم بالذهب على خوض غمار معركة معهم . وقد دفع هذا الموقف المتخاذل مجلس كبار مملكة المانيا عام ٨٨٧ الى عزل شارل السمين الذي توفي بعد ذلك بقليل .

تولى عرش المانيا بعد شارل السمين ارنولف وهو ابن طبيعي لكارلومان بن لويس الجرماني ، وقد شغل ارنولف في بداية حكمه بالدفاع عن مملكته ضد غزوات النورمان في الشمال والغرب وضد توسع وتعاظم قوة الامبراطورية المورافية التي تشكلت في الشرق ، ولذلك لم يستطع أن يحول دون حصول غي دوق سبوليت على لقب ملك ايطاليا ثم على التاج الامبراطوري عام ٨٩١ م وبعد

أن استقرت الأحوال في مملكة جرمانيا ، وجه عام ٨٩٤ م حملة الى ايطاليا بقيادة ابنه ، ثم قاد بنفسه حملة اخرى في العام نفسه دون أن يتوصل الى تحقيق نصر حاسم على سبوليت ، ثم قام بحملة جديدة في عام ٨٩٥ بعد موت غي ، ورغم المقاومة العنيفة التي ابدتها ارملة غي دفاعا عن حقوق ابنها لامبيز فقد دخل ارنولف الى روما حيث توج امبراطورا عام ٨٩٦ ، ومن ثم اتجه نحو سبوليت مقتفيا اثار منافسية وبينما كان في طريقه اليها اصيب بالشلل فأعيد الى المانيا حيث مالبث أن توفي عام ٨٩٩ . لم يخلف ارنولف وريثا سوى ولد في السادسة من العمر هو لويس الثالث وذلك في الوقت الذي كانت فيه المانيا بحاجة الى ملك قوي اذ انها كانت مهددة بخطر رهيب هو خطر الغزو الهنغاري ، فقد ظهر الهنغار ، وهم من اصل مغولي ، في وادي الدانوب قادمين من الشرق فاقتحموا هنغاريا واكتسحوا منطقة البندقية ولومبارديا في شمال ايطاليا (٨٩٩) واقتحموا مورافيا (٩٠٥ ـ ٩٠٦) ومن ثم اندفعوا نحو الساكس (٩٠٦) وبافاريا (٩٠٧) ولم يستطع مجلس الوصاية تنظيم الدفاع عن المملكة ومنع الغزوات السنوية التي كان الهنغار يقومون بها على هاتين المنطقتين والقيام بأعمال السلب والنهب والتخريب . وفي عام ٩١١ مات لويس الثالث وله من العمر ١٨ عاما .

أدى عجز حكومة لويس الثالث الى التفاف سكان المقاطعات المتاخمة للحدود حول زعماء محليين ، وظهرت بنتيجة ذلك خمس « دو قيات وطنية » هي :

الساكس ، وبافاريا ، وسواب ، وفرانكونيا ، واللورين . وقد انتخب في عام ٩١١ دوق فرانكونيا ، ملكا خلفا للويس الثالث وهو يعد من السلالة الكارولنجية من طرف امه ، وكان عهده عهد اخفاق سواء في الدفاع عن المملكة ضد غزوات الهنغار أو في الحفاظ على وحدتها اذ انتزع ملك فرنسا مقاطعة اللورين ، أو في فرض احترامه وطاعته على دوقات بافاريا والساكس وسواب الذين كانوا يعارضونه بالقوة أحيانا ، وقد اضطر ، قبل موته الى تعيين خلف

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

أقوى اعدائه وهو هنري دوق الساكس الذي انتخب ملكا وحكم باسم هنري الأول وبتوليه العرش ينتهي حكم السلالة الكارولنجية في جرمانيا .

كان شارل الأصلع يتمتع بمواهب تجعله جديرا بمنصبه ، فقد كان واسع الثقافة محبا للاطلاع والمعرفة وجمع في بلاطه ، نخبة من المثقفين والمفكرين في عهده . وكان ايضا مقداما وكريما وبليغا في آن واحد ، وهذه هي صفات الملك المثالي كما كان يراها رجال العصر الوسيط ،وكان ذا عزيمة لاتعرف الوهن ولا يدع اليأس يتسرب الى نفسه ، ويعرف كيف يكتسب ولاء رجاله واخلاصهم باللجوء الى اللين في معاملتهم حينا والى الشدة والقسوة حينا أخر٠.

وكانت هذه الصفات ضرورية لكي يتغلب على الصعوبات التي واجهته في حكمه الذي كثرت خلاله الثورات الداخلية ، في بريتاني واكيتانيا خاصة ، وغزوات النورمان التي بدات منذ عام ٨٤١ م واضطر شارل الأصلع في الاجتماع المعقود في كولين عام ٨٤٣ خلال حملته على بريتاني لاخماد ثورة فيها ، أن يمنح رجال الكنيسة وكبار المملكة امتيازات واسعة لكي يكسب تأييدهم ومناصرتهم له ، فوعد الكنيسة بعدم مصادرة أملاكها وبعدم التدخل في شؤونها الادارية ، كما تعهد باحترام حقوق كبار المملكة واحترام وظائفهم واملاكهم والقابهم ، ويمكن القول بأن هذا التعهد كان نوعا من وثيقة دستورية تقيد سلطة الملك وتسبق (الما غناكارتا) الوثيقة الكبرى الانكليزية (١٢١٥ م) بأربع قرون .

وبعد ذلك سار الى اكيتانيا لاخماد الثورة التي قامت فيها عام ٨٤١ م بزعامة ابن اخيه بيبن الثاني وبينما كان يحاصر تولوز اتته انباء ثورة بريتاني واكتساح الثوار القسم الغربي من المملكة مما اضطره الى رفع الحصار عن تولوز تاركا اكيتانيا لبيبن الثاني الذي اعترف بسيادته . وفي عام ٨٤٦ م قبل باستقلال بريتاني كامر واقع . وفي عام ٨٤٨ اقام احتفالا دينيا كبيرا في مدينة أورليان حيث توجه رئيس اساقفة ساندس ومسحه بالزيت وازدادت متاعب

شارل الأصلع بسبب توسع الغارات النورمانية عبر انهر الايسكو والسين واللوار ، وفي منطقة بروفانس وبلغت هذه الغارات اوج شدتها بين عامي ٨٥٦ و ٨٦١ م وفي هذه الأثناء ثار كبار اكيتانيا ونوستريا ضد شارل عام ٨٥٨ م، ووجهوا نداء الى أخيه لويس الجرماني للتدخل فسارع هذا الأخير الى مهاجمة فرنسة ولكن رجال الدين رفضوا تأييد لويس الجرماني مما اضطره الى العودة الى مملكته .وعهد شارل عام ٨٦١ م بقيادة البلاد الواقعة بين نهري السين واللوار الى روبرت الملقب بالقوي وكلفه بالدفاع عنها ضد غارات النورمان فاستطاع روبرت أن يحقق عليهم انتصارا باهرا عام ٨٦٦ م .

وضم شارل الاصلع الى مملكته في عام ٨٦٩ النصف المغربي من اللوريين ودوقية ليون وذلك على اثر موت ملكها لوثر الثاني . كما انه ضم عام ٨٧٥ م مقاطعة بروفانس بعد موت الامبراطور لويس الثاني ، وفي أخر عام ٨٧٥ (في كانون الأول) توجه البابا يوحنا الثامن في كنيسة القديس بطرس امبراطورا .

وقام شارل الأصلع بمهاجمة مملكة جرمانية بعد وفاة أخيه لويس الجرماني والخلاف الذي دب بين ابناء أخيه حول الارث ، ولكن ابن أخيه لويس الشاب استطاع صده ، وفي هذه الأثناء شن النورمان غارة جديدة على فرنسا في مجرى نهر السين . كما أن البابا وجه اليه نداء لمساعدة ايطاليا ضد غارات المسلمين عليها لذا عمل على ترحيل النورمان عن فرنسا بأن دفع لهم مبلغا كبيرا من المال وضمان اخلاص كبار المملكة بمنحهم امتيازات جديدة جعلتهم شبه مستقلين في مقاطعاتهم ، ومن ثم توجه الى ايطاليا ، ولكن ما ان وصل الى ايطاليا الشمالية حتى قام بعض كبار المملكة بثورة ضده بحجة انه ترك فرنسا فريسة لغزوات النورمان سعيا وراء الحكم الامبراطوري فسارع بالعودة الى فرنسا ، ولكن صحته كانت معتلة وبلغ منه التعب والاجهاد اقصاه فوافته منيته بينما كان يجتاز ممرا في جبال الالب في طريق العودة .

خلفاء شارل الاصلع (٨٧٧ ـ ٩٨٧):

كان شارل الاصلع آخر ملك كارولنجي حكم فعلا في فرنسا مع أن السلالة الكارولنجية بقيت فيها مائة وعشر سنوات أخر ، واتصفت بانقسام كبار المملكة الى فريقين احدهما السلالة الكارولنجية الشرعية بينما أيد الفريق الآخر سلالة الروبرتين (نسبة الى روبرت القوي) ، واستمر الصراع بين الفريقين حتى نهاية عصر السلالة الكارولنجية .

كان حكم خلفاء شارل الأصلع الثلاث الأوائل قصيرا جدا توفي الواحد بعد الآخر خلال خمس سنوات وهم ابنه لويس الأ لكن (٨٧٩ م) وحفيداه لويس الثالث (٨٨٢) وكارلومان (٨٨٤) وهنا لم يفكر كبار المملكة بتقديم العرش لوريثه الشرعي وهو اخوه شارل الساذج الذي كان لا يزال قاصرا بل انتخبوا ملك جرمانيا شارل السمين ملكا على فرنسا ايضا . ولكن الآمال التي عقدوها عليه منيت بالخذلان كما مر من قبل ، وبعد موت شارل السمين ٨٨٨ ،انتخب كبار مملكة فرنسا ملكا جديدا هو أود كونت باريس وابن روبرت القوي .وكان أود قد اكتسب شهرة على اثر دفاعه عن مدينة باريس ضد هجمات النورمان .

استمر حكم أود عشر سنوات ٨٨٨ ـ ٨٩٨ قضاها في محاولات غير ناجحة لصد غارات النورمان على فرنسا وفي الحرب ضد انصار الحزب الشرعي الذي لم يقر بشرعية تولي أود الحكم،وظل صاحب الحق الشرعي شارل الساذج الذي توجه رئيس اساقفة رانس ملكا عند بلوغه سن الرابعة عشرة ، وفي مطلع عام ٨٩٨ مات أود بعد أن أوصى أخاه روبرت وانصاره بالاعتراف بالملك الكارولنجي ، وقد أخذ روبرت بوصية اخيه فاكتفى بان يكون كونتا على باريس وانجو وتور وبلوا والمستشار الأول الذي يتمتع بالسلطة الحقيقية الى جانب الملك الكارولنجي شارل الساذج .

وتميز عهد شارل الساذج بحادثتين هامتين وهما :

١ ـ توطين النورمان في المنطقة الساحلية التي ستحمل اسمهم اي نورماندي .
٢ ـ استعادة مقاطة اللورين .

وحاول شارل الساذج التخلص من وصاية مستشاره روبرت وحاول ابعاده عن القصر ، ونجم عن ذلك قيام انصار روبرت بالثورة وبتتويج روبرت ملكا عام ٩٢٢ م ، ولكن هذا الأخير قتل في العام التالي في موقعة بينه وبين انصار الملك الكارولنجي .وانتخب اتباع روبرت بعد موته صهره راؤول دوق بورغونيا الذي توج وتخلص من الملك الشرعي شارل الساذج فاعتقله وبقي اسيرا حتى موته عام ٩٢٩ .ولكن حكم راؤول لم يكن اسعد حالا من حكم الملوك السالفين إذ انه اضطر الى التخلي عن بايو للنورمان كما تنازل عن مقاطعة اللورين الى ملك جرمانيا الأول .

عاد الكارولنجيون الى تولى عرش فرنسا بعد موت راؤول عام ٩٣٦ م ، فقد فضل كونت باريس هيو بن روبرت الملقب بالكبير ، ان يحكم بشكل غير مباشر وراء اسم لويس الرابع ابن شارل الساذج .ولكن سرعان ما نشب النزاع بين هيو الكبير ولويس الرابع الذي لم يقبل أن يكون ملكا اسميا فقط ، وطلب كل منهما تأييد ملك جرمانيا القوى أوتو الأول ومناصرته ، لأنه كانت تربطهما به رابطة المصاهرة ثم تصالح الاثنان عام ٩٥٠ م .وقد بذل لويس الرابع جهودا كبيرة لاخضاع النورمان ، ثم اجبرهم على الاعتراف بسيادته عام ٩٤٥ م ، كما اضطر دوق اكيتانيا الى الاعتراف بسيادته ايضا .

بعد موت لويس الرابع عام ٩٥٤ تولى العرش ابنه البكر لوثر ، الذي كان له من العمر ثلاث عشرة سنة ، تحت وصاية هيو الكبير الذي مات بعد سنتين عام ٩٥٦ .وكان لوثر نشيطا مثل ابيه ، وحاول استعادة اللورين من خاله ملك جرمانيا أوتو الثاني

الذي صد المحاولة واكتسح فرنسا حتى وصل الى باريس التي دافع عنها هيو كابيه ابن هيو الكبير (٩٧٨).

وقد مات لوثر عام ٩٨٦ م خلال حملة جديدة لاستعادة اللورين وخلفه على العرش ابنه لويس الخامس دون اي صعوبة ، ولكنه مات في حادث في السنة التالية ٩٨٧ م .

وعلى الاثر عقد كبار المملكة العلمانيون والدينيون ، اجتماعا في مدينة نوايون لانتخاب ملك جديد ووقع اختيارهم على هيوكابيه كونت باريس الذي توجه رئيس اساقفة رانس ملكا .وبدأ بذلك حكم سلالة جديدة في فرنسا هي اسرة كابيه التي سنتعرف الى شي من تاريخها .

الحضارة الكارولنجية

كان وصول الأسرة الكارلونجية الى الحكم وتوحيد قسم كبير من أوربا الغربية في عصرها وتوطيد النظام والأمن فيها خلال أكثر من نصف قرن ، عاملا ساعد على خلق جو موائم للنشاط الثقافي فازدهر النشاط الفكري في البلاد الانكلوسكسونية ، والنشاط الفني في غاليا الشمالية ، أما العناصر المادية والاتجاهات الاقتصادية والبنيان الاجتماعي في حضارة أوربا في هذا العصر فقد تابعت تطورها الذي بدأته في العهود السالفة وكان عاملا رئيسا في انحطاط الحضارة الغربية .

الحياة الاقتصادية:

كان البنيان الاقتصادي في القرن الثامن بدائيا جدا ، فالادوات الزراعية البسيطة والاساليب البدائية كانت لا تسمح باستثمار غير الأراضي الخفيفة السهلة الحراثة ، التي سرعان ما تنفد خصوبتها .أما الأراضي الثقيلة الرطبة فكانت تغطيها الغابات أو المستنقعات ، ويبدو أن توطيد الأمن والسلام بين عامي ٧٥٠ و ٨٥٠ أدى الى زيادة هامة في عدد السكان ، ولكن هذه الزيادة في عدد السكان لم تدفع رجال ذلك العصر إلى توسع رقعة الأراضي المزروعة .

وكان النشاط التجاري في هذه الشروط محدودا جدا ، فقد قضت الحروب المستمرة بين الفرنجة والعرب المسلمين في الجنوب على بقايا الاقتصاد القديم المرتبط بالبحر المتوسط ، ولم يعد يوجد في مدن الجنوب ، كما كان في العصر الميروفنجي ، جماعات من التجار الشرقيين ، وكان بعض سكان المدن يتعاطون التجارة أحيانا دون

أن يجعلوا من التجارة مهنة لهم ، وأدى تدعيم النظام السياسي في غاليا الشمالية الى تشجيع التجارة بعض الشيء حيث بدأت حركة المبادلات التجارية تنشط تدريجيا .

هذا واستمر استيراد السلع الشرقية الخفيفة الوزن ، الغالية الثمن التي احتاجت اليها الارستقراطية العلمانية والدينية مثل التوابل ، والعطور والأقمشة الفاخرة،ولكن طرأ تغيير على طرق التجارة .فقد اصبحت هذه البضائع تصل الى الغرب عن طريق الموانىء البيزنطية في ايطاليا الجنوبية وعلى البحر الادرياتيكي أو بسلوك الطريق البرية التي تمر عبر بلاد السلاف ،أو بواسطة الطرق البحرية في بحر البلطيق التي تكملها الطرق النهرية في الأنهر الكبرى في أوربا الشمالية وكانت جزيرة جوتلاند عقدة تلك المواصلات البحرية في الشمال .

كما ونشأت تيارات جديدة للمبادلات التجارية ، فقد أدى تطور صناعة الأقمشة الصوفية ونموها في البلاد المتاخمة لسواحل بحر الشمال الى حركة تصدير لهذه المصنوعات الى البلاد المجاورة ، وأخذ التجار الفرنجة منذ نهاية القرن الثامن ينقلون المنسوجات المصنوعة في شمال غاليا ، والعبيد المأسورين في بلاد وثنية ، وبيعهم في البلاد الاسلامية وأدت هذه التجارة مع البلاد الاسلامية الى نتيجة هامة في الاقتصاد الغربي ، وهي اعادة ادخال المعادن الثمينة في النظام الاقتصادي مما جعل النشاط يدب في تداول النقود والمبادلات المحلية وسمح بدفع قيمة البضائع المستوردة من بيزنطة ، تلك البضائع التي كاد فقر أوربا بالمعادن الثمينة أن يؤدي الى انقطاع استيرادها .

ونجم عن عودة النشاط الى حركة المبادلات التجارية ، على الرغم من بساطتها وعن الاتجاهات الجديدة في التجارة :

اصلاح نظام النقد الفرنجي تدريجيا حيث توصل الملوك الكارولنجيون ، امام تداول النقود العربية والصقيلة ، إلى اصلاح قيمة الدانق الفضي وتثبيتها بربطه على ما يبدو بالنظام النقدي

الاسلامي ، وقاموا بصك النقود الذهبية احيانا وبشكل متقطع وغير منتظم وشهدت المدن وخاصة في المنطقة الواقعة بين نهري السين والراين بعض النهضة ، وعادت الحياة الى مدن قديمة مثل اراس ومتز وفردان ، كما ونشأت تجمعات سكنية جديدة حول مراكز المبادلات التجارية النشيطة على طول مجاري الأنهار الكبرى وعلى ساحل بحر المانش وبحر الشمال .

غير أن مظاهر النشاط الاقتصادي هذه ظلت محدودة النطاق جدا ، ويشير الباحث اليها فقط لأنها كانت ممهدة للتوسع الاقتصادي الكبير في القرن الحادي عشر ، ويجب الا يغرب عن البال أن الاقتصاد الكارولنجي كان اقتصادا زراعيا قبل كل شيء شغلت فيه المدن دورا ضئيل الأهمية .

وبناء عليه كان قوام العمل الاقتصادي في هذا العصر هو الملكية الزراعية الكبرى المسماة « الدومين أو الفيلا » وترجع اصول نظام الدومين الى أواخر أيام الامبراطورية الرومانية وبدايات العصر الميروفنجي ، ولكنه لم يظهر كنظام متكامل الأطر ، واضح الحدود والمعالم الا في السنوات الأولى من القرن التاسع ، فهذا مانراه من خلال الوثائق وكان عدد « الفيلات » كما يظهر من الوثائق ، كبير في نوستريا واوسترازيا ، ولكنها لم تشمل جميع الأراضي المزروعة ، فقد كان يوجد الى جانب هذه المزارع االكبرى مزارع مستقلة اصغر مساحة . وكانت مساحة الفيلات عرضة للتبدل المستمر بسبب الوراثة أو البيع والشراء أو الهبة ولكن برغم التنوع الخارجي في شكل الفيلات كانت بنية استثمارها واحدة . فالفيلا تقسم الى قسمين :

١ـ الاحتياطي أي القسم الذي يحتفظ به المالك لنفسه ويستثمره مباشرة ، وتعادل مساحته ثلث أو ربع مساحة الفيلا ويشتمل على اراضي زراعية ومراعي وغابات وكروم ـ اذا كان المناخ موائما لذلك ـ واراضي بور ، وقام في مركز الاحتياطي سكن المالك أو وكيله واحاطت به قطعة من الأرض قامت عليها مساكن الخدم والعبيد

وابنية الاستثمار (اسطبلات ، اهراء ، فرن ، معصرة مطحنة) وفي اغلب الاحيان كنيسة .

٢ـ شمل القسم الثاني من الفيلا الاراضي الزراعية المتبقية ، وكانت تنقسم الى عدة قطع صغيرة تسمى كل منها « ماذس » تناثرت في انحاء الفيلا ، واعتاد المالك أن يعهد باستثمار الماذسات الى فلاحين او الى عبيد واستدعت هذا التقسيم لأراضي الفيلا او الدومين وسببته ضرورات الاستثمار ، فالمالك كان لايستطيع وحده تنظيم استثمار جميع الاراضي التي يمكن زراعتها في دومينه . ويتطلب استثمارها عددا كبيرا من الأيدي العاملة لأن الأدوات والأساليب التي كانت مستخدمة في الزراعة بسيطة وبدائية ، وحالت قلة النقد وسيولة تداوله دون استخدام عمال مأجورين ، كما أن استخدام العبيد اصبح قليل الجدوى بسبب صعوبة الحصول على العبيد بعد تحريم الكنيسة لإسترقاق المسيحيين ، وبسبب ارتفاع كلفة اعالتهم وضعف مردود عملهم ، لذا لجأ الملاكون الكبار الى تقسيم جزء من اراضيهم الى ماذسات وعهدوا باستثمارها الى عبيدهم او الى فلاحين احرار ، وكان كل من هؤلاء يتمتع بموارد الماذس التي يستثمرها والتي تكفي لاعالة اسرته مقابل بعض الالتزامات نحو المالك وكانت هذه الالتزامات على نوعين :

١ـ المساهمة في تأمين الموارد اللازمة لاعالة بيت المالك وذلك بتقديم بضع قطع نقدية كل عام ، وكمية محدودة من المحصولات الزراعية ، وبعض المصنوعات (أدوات خشبية ، منسوجات) .

٢ـ او المساهمة في استثمار الاحتياطي وذلك بزراعة قسم صغير منه لفائدة المالك في أن يضع نفسه تحت تصرف المالك عددا من الأيام في السنة،للمساهمة في الأعمال الزراعية التي تحتاج الى ايدي عاملة كثيرة،مثل الحصاد والقطاف ونقل المحصولات وصيانة مباني المزرعة ، وكانت هذه الأعمال المجانية أهم من الالتزامات العينية التي يؤديها الفلاح الى المالك لأنها اوجدت الحل لمشكلة تأمين العمال الضروريين لاستثمار ارضهم بدون دفع اجور .

وامن هـذا النظـام في استثمار الدومين ، او الفيلا للمـالكين العقـاريين الكبـار المواد الاستهلاكية الضرورية لحياتهـم وحياة عائلتهم وخدمتهم ، كمـا أن حفنة النقـود التـي كان الفـلاحون يدفعونها له كفت لدفع ثمـن الحـاجيات مـن الكمـاليات الضرورية للمحافظة على المظاهر الخارجية التي تطلبها مركز كل مالك ومكانته الاجتماعية .

ب ـ المجتمع:

كان المجتمع الفرنجي في العصر الكارولنجي مجتمعا زراعيا ينظم تبعا لنظام الدومين ، فهو مجتمع كان يقر الرق كمؤسسة اجتماعية كمـا كان الحـال في ايام الامبـراطورية الرومـانية والدولة الميروفنجية ، وظل التقسيم الرئيسي في المجتمع من الوجهة الحقوقية والشرعية هو التقسيم الى احرار وعبيد . فـالأحرار هـم وحـدهم الذين كانوا يعدون اعضاء في الجمـاعة يحـق لهـم الاشـتراك في نشاطاتها المختلفة من حربية وقضائية .

وقـد اخـذ الرق بـالتقلص في الواقـع منذ العصر الميروفنجي ، وساهمت التعاليم الاخـلاقية المسـيحية التـي كانت تحرم استرقاق من يعتنق المسيحية وتعد تحرير العبيد عمـلا يكافـأ فاعله بالخلاص ، في تناقص طبقة العبيد ، ولكن في الحقيقـة كانت الأسباب الرئيسية لهذه الظاهرة اسبابا اقتصادية ، فقد ارتفع ثمن العبيد الذين كان تجار النخاسة يجلبوهم من البلاد الوثنية ارتفـاعا كبيرا بسبب الطلب المتزايد على العبيد في أسواق البـلاد الاسـلامية كما ان تطبيق نظام الدومين ادى الى ابطال استخدام عدد كبير مـن العبيد في استثمار الأرض ، وعلى هذا كان عدد العبيد في بداية القرن التاسع لايزيد عن عشر مجموع السـكان الريفيين ، وبقـي وضـع العبيد الشرعي وراثيا حيث يتمتع المالك بحق معاقبة عبـده حسـب هـواه ، وبسـلطة عليا عليه وعلى ابنائه ومـايملك . فـالعبد كان لايستطيع الانتقال او الزواج دون موافقة سيده وتوجب عليه ان يلبي طلبات السيد .

وقد لجأ كبار الملاكين منذ تطبيق نظام الدومين الى اعطاء بعض عبيدهم بعض المانسات مما أدى ايضا الى اضعاف ارتباط العبد بسيده لأن التزاماته نحو السيد اخذت تميل الى الاقتصار على الالتزامات التي يحددها استثمار المانس وصار باستطاعة العبد ان يعمل بحرية في الأرض التي أوكلت اليه وبيع جزء من محصولاته ومن ثم ان يحقق شيئا من الادخار وان يشتري ، اذا كان نشيطا ، قطعة من الأرض الحرة ، واكتسب العبيد نوعا من الشخصية الأخلاقية ولو معنويا اثر اعتناقهم للديانة المسيحية التي كانت تتابع انتشارها في الريف .

شهدت احوال العبيد اذن شيئا من التحسن ضمن اطار نظام الدومين أما الفلاحون الأحرار الذين كان المالك يعهد اليهم باستثمار المانسات وتسميهم الوثائق المعاصرة «معمرين » فقد ساءت احوالهم ، وتضاءلت حريتهم ، وكان هؤلاء نظريا جزءا من الشعب الفرنجي ويتمتعون بالحقوق العامة للفرنجة ، غير انهم عمليا باتوا يخضعون لسلطة مالك الأرض الذي عدهم خدما له واستثمرهم وفرض عليهم مشيئته دون رقيب ، وقد اعفي هؤلاء المعمرون من الخدمة العسكرية ، ولكن اصبح لزاما عليهم ، مقابل ذلك ، ان يسهموا في تجهيز مالك الأرض واداء ضريبة البدل ، والقيام بأعمال سخرة مهنية ، ومع هذا ظل التمييز بين المعمرين الأحرار والعبيد قائما مع انهم الفوا جميعا طبقة واسعة مستضعفة وفي الواقع اخذ التمييز الاجتماعي المبني على أساس اقتصادي بين المعمرين العاملين في الدومين وبين المزارعين الأحرار الذين يملكون ارضا مستقلة حرة ، يزداد اهمية يوما بعد يوم .

وكان المزارعون الأحرار يشتركون فعلا في كل نشاطات الجماعات الفرنجية الحربية والقضائية . ولكن عدد هؤلاء اخذ بالتناقص ، وذلك لأن اعباء الواجبات في حضور المحاكمات والاشتراك في الحملات الحربية كل عام كانت ثقيلة عليهم ولاسيما اذا كانت مساحة ارضهم بسيطة ولايستطيعون ان يعهدوا الى

سواهم باستثمارها ولذا كان الكثير منهم يسعى الى التهرب من تلك الواجبات بان يضع نفسه تحت حماية احد المتنفذين أو بـان يحـول ارضه الى « مانس » ويصـبح معمـرا في خـدمة احـد الملاكين الكبار ، وعلى هذا الشكل كانت هذه الطبقة الوسطى من الأحـرار تتضائل .

وجعل انحطاط الطبقة الوسطى تفوق طبقة الملاكين الكبار اكثـر بـروزا ولاسـيما الذين كانوا يملكون عدة فيلات ، وأصـبح هؤلاء يحملون القابا شرفية مثل : المقدمون أو الأعيان أو النبـلاء وكانوا يزدادون غنى وثروة بضم أراضي المزارعين الأحرار الذين يدخلون في خدمتهم وحمايتهم ، وبـالهبات التـي كان يغـدقها عليهـم الملوك ، يضاف الى ذلك انهم كانوا يتقلدون الوظـائف العليا المدنية والدينية ، وهم الوحيدون الذين يتمتعون حقا بالحرية ويقتربون من الملك سواء عند التحاقهم بالجيش او في المجـامع التشريعية ، فهـم الذين يملكون الثروة والسلطة .

نظام الحكم والادارة:

ظل مفهوم الدولة كفكرة مجردة ومفهوم الواجب المدني مفقـودين في العصر الكارولنجي وبقيت التقاليد الجرمانية ، التي تعـد المملكة ملكا شخصيا للملك يتقاسمه ورثته بعد موته ، سائدة .

كانت السلطة الملكية مطلقة لاتخضع لأي قيد او تحديد ، ولم يكن لمجالس كبار رجالات المملكة سوى صفة استشارية ، ومع ذلك فقـد كانت تعتـرض ملوك الكارولنجيين بعض الصـعوبات في فـرض سلطتهم على كل انحاء المملكة وعلى جميع رعاياهم وهذه الصعوبات هي :

١ ـ ضعف الجهاز الاداري في المقاطعات واقتصار هذا الجهـاز على كبـار الموظفين ، فليس للملك مـن يمثله في المقـاطعات سـوى الكونتات يسـاعدهم بعض مـوظفي القضـاء ولم يكن الكونتـات

يحكمون مقاطعاتهم ويديرون شؤونها فعلا بسبب عدم وجود العدد الكافي من الموظفين المساعدين .

٢ ـ صعوبة المواصلات بين اطراف المملكة بسبب تردي حالة الطرق القديمة ، وعدم انشاء طرق جديدة ، وزاد في هذه الصعوبات اتساع رقعة المملكة بعد أعمال شارلمان التوسعية الكبيرة .

٣ـ قلة استعمال الكتابة في الشؤون الادارية والسياسية والاكتفاء بالكلام الشفوي والاتصالات الشخصية والاعتماد على الذاكرة .

٤ـ عدم وجود موارد مالية منتظمة ووفيرة لتزويد خزانة الملك فقد اقتصرت هذه الموارد على الضرائب الموروثة من العصر الكارولنجي . وهذا ماجعل من العسير على الملك ان يقوم بتوزيع أعطيات مالية دورية على اتباعه للمحافظة على ولائهم واخلاصهم له .

وقد توصل الكارولنجيون على الرغم من هذه الصعوبات الى فرض سلطتهم ، لأن بنيان المجتمع وتركيبه كان يمثل عاملا مساعدا في تسهيل الحكم ، فقد كان يكفي أن يحقق الملك خضوع بعض مئات من كبار رجالات المملكة : وملاكين عقاريين واساقفة ، وكان هؤلاء بدورهم يخضعون جماهير الفلاحين المرتبطين بهم والعاملين في أراضيهم ، وقد لجأ الملوك الكارلنجيون في أواخر القرن الثامن الى تحقيق هذه الغاية بوسائل عديدة ، نجملها فيما يلي :

الحرب:

كان الملك وخاصة في عهد شارلمان ، يقود كل سنة حملة خارج حدود مملكته فالمملكة الفرنجية كانت حسب التقاليد البربرية ، ملكية عسكرية قبل كل شيء، والشعب هو الجيش والملك هو القائد الحربي ، وعندما يقوم باداء هذا الدور فله ان يبسط سلطانه ويدعم سيادته ، ولذا كان على جميع الرجال ان يلبوا نداء التعبئة ويسارعوا ، ولاسيما الأغنياء منهم ، الى اللقاءفي الموعد المحدد من

شهر أيار حتى شهر تشرين اول تحت راية الملك،وكل من يتأخر يعرض نفسه لغرامة باهظة ، وكل من تبدر عنه بوادر التخاذل او الجبن اثناء القتال يتعرض لاشد انواع العقوبات .

وهكذا كان رجال الطبقة الارستقراطية يجتمعون كل عام في مجموعة متماسكة تحت قيادة الملك المباشرة .

اضف إلى ذلك ان الحرب وماتدره من غنائم وإسلاب في حالة النصر كانت تزود الملك بوسيلة لمكافأة الذين يخلصون له الخدمة ، ولاكتساب مودة وصداقة الآخرين . ولذا كانت محاولات العصيان والتحرر تعقب في اغلب الأحيان ، الحروب التي لاتكلل بالنصر .

ولكي يؤمن الملك سيادته وسلطته على الارستقراطيين خلال فترة السلم في فصل الشتاء ، وبعد ان يتفرق الجيش ويذهب كل فرد الى بلده ، عمد الى اختيار عدد من حكام المقاطعات (الكونتات) من بين أصدقائه الحميمين الذين يرتبطون به اما بصلة القربى وهي أمتن صلة ، وإما برابطة أخرى شخصية تشبه في متانتها صلة القربى ،وكان الملك يلجأ الى تربية ابناء بعض الارستقراطيين في قصره بحيث يكونون من جانب رهائن بمثابة ضمانة لاخلاص ابائهم ووفائهم ، ويذشؤون من جهة أخرى على احترام الملك وطاعته ، وعندما يبلغون سن الرشد ويعودون الى املاكهم يصبحون من اشد المخلصين له .

نظام التبعية:

اخذ الكثير من الرجال الاحرار منذ اوائل القرن الثامن يضعون انفسهم تحت رعاية احد « السادة » دون أن يفقدوا حريتهم ، ويصبحون « تابعين » له ويتم ذلك وفق مراسم معينة : يركع « التابع » على ركبتيه أمام السيد ويضم يديه ويضعهما بين يدي السيد ويصبح بذلك « رجله » ثم يقسم يمينا يعد فيه (سيده)

بالاخلاص الكامل ، ويتلقى منه مقابل ذلك الحماية وقطعة من الأرض تسمى « الانتفاع » يتمتع بمواردها ما دام مخلصا للسيد ، وقد استغل اوائل الكارولنجيين هذا النظام لكي يجعلوا من كبار رجالات المملكة :الكونتات ورجال الدين والملاكين العقاريين « اتباعا » للملك وذلك بمنحهم (انتفاعات) من املاك الخزانة الملكية أو من املاك الكنيسة المصادرة ، وتوجب على هؤلاء الاتباع مراعاة القيام بواجباتهم مثل :الالتحاق بالجيش بأتم واحسن تجهيز ، وحضور جلسات المحكمة الملكية ، ومساعدة الملك في اقرار النظام والسلام في انحاء المملكة ، ووضع الملاكون العقاريون الأقل غنى وثروة انفسهم تحت « رعاية ، اتباع الملك وغدوا « اتباعا » له كما انهم اصبحوا بدورهم « اسيادا » لمن هم دونهم في الثروة والغنى ، وهكذا اصبح جميع الناس الأحرار مرتبطين ببعضهم برباط « التبعية » مؤلفين تسلسلا هرميا ينتهي بشخص الملك .

وقد وضعت قواعد لهذا النظام أصبحت محددة وثابتة مع الزمن ، فصارت رابطة « التبعية » التي تربط بين السيد و« التابع »تدوم مدى حياة الطرفين . وغدا « الانتفاع » يمثل أجر التابع على اخلاصه للسيد الذي يحق له استرجاع الانتفاع اذا ما خانه التابع أو لم يقم نحوه بالواجبات المفروضة عليه ، وقد ظلت هذه الواجبات غامضة مبهمة دون تحديد كاف وتتضمن مساعدة التابع لسيده ، باستمرار وفي جميع الظروف في السلم او في الحرب .

التنظيم الاداري

سعى الكارولنجيون الى تقوية سلطتهم ايضا عن طريق تحسين المؤسسات والنظم الادارية التي ورثوها عن الميروفنجيين ، فطلبوا الى الكونتات تنظيم سجلات ودواوين لحفظ المراسلات والتعليمات والأوامر الملكية ولكن دون أن يحققوا نجاحا كبيرا في هذا المجال .وعملوا ، هم انفسهم ، على تدوين المراسيم والقرارات

الملكية التي تتضمن الأوامر والتعليمات الشفهية التي كانوا يلقونها في بدايةكل حملة امـام افـراد الجيش ، وسـعى الملوك الى تـأمين مراقبة اعمال حكام المقـاطعات (الكونتـات) عن كثـب . فـأنشأ شارلمان ، لهذه الغاية ، نظـام المفتشـين الجـوالين ، وكان هؤلاء المفتشون يتألفون من جماعات صغيرة تضم كل منها كونتا واسـقفا وتطوف في عدد من الكونتيات دون أن يكون لأي واحد من أعضـائها أي رابطة تربطه باحدى تلك الكونتيات واصبحت جولات المفتشـين على المقاطعات منتظمة تتكرر اربـع مـرات في السـنة . ويحمـل المفتشون أوامر الملك الجديدة ويتـأكدون مـن تنفيذ الأوامـر الملكية السالفة ويتحققون من أن الأمن والعدل مستتبان . ويتلقون شكاوى الرجـال الاحـرار ، ويدخلون الاصـلاحات اللازمـة على ادارة المقاطعات .

ولجأ الملوك الكارلنجيون ايضـا إلى تقليص سـلطات الكونتـات وخاصة في الشؤون القضائية إذ أنهم وسعوا وزادوا في صـلاحيات محكمة القصر ، واحدثوا في كل كونتيه جهازا من القضاة المحترفين يختارهم المفتشون ، وهم مجبرون على حضور الجلسات العلنية في جميع المحاكم العامة ويتوجب على الكونت أن يحترم قـراراتهم وأن ينفذها .

وبعـد أن تـوسعت المملكة الكارولنجية وخـاصة في عهـد شارلمان ، أنشأ الكارولنجيون في بعض المقاطعات البعيدة عن مركز المملكة ، كايطـاليا ، وبـافاريا واكتيانيا ، ممـالك ذات اسـتقلال داخلي ، وأنشأووا بالقرب من الحدود التي كانت تتهـددها اخـطار غزو خارجي مناطق عسكرية واسـعة تضـم عددا مـن الكونتـات واطلقوا عليهم اسم « التخوم » وعهدوا بادارتها الى حاكم عسكرى « دوق » يهيمن على جميع الكونتات المرتبطين به .

وأخيرا زاد الكارولنجيون في منح امتيازات « الحصـانة » للمؤسسات الدينية الكبرى حتى أصبحت جميع امـلاك الأسـقفيات والأديرة في القرن التاسع تتمتع بالحماية ولا يحـق للكونت واعوانه

التدخل في شؤونها . وبذلك أصبح الأسقف هو الممثل الوحيد للسلطة الملكية بين الرجال الاحرار المقيمين في الأراضي المتمتعة بالحصانة ، فهو الذي كان يقودهم للالتحاق بالجيش ، وهو الذي يقمع المخالفات ويقيم القضاء ويقدم كبار المجرمين إلى المحكمة الملكية ، وبهذا الشكل أخذ رجال الدين يساهمون في ادارة قسم كبير من المملكة ،وهذا ما يميز المؤسسات السياسية والادارية الكارولنجية اي الارتباط الوثيق بين السلطة الملكية والكنيسة .

ـ اضفاء الصبغة الدينية على المملكة :

اكتسبت الملكية الفرنجية في القرن الثامن صفة دينية كما هو الحال في بيزنطة وفي العالم الاسلامي ، واستمد الملوك هذه الصفة الدينية من الاحتفال الديني بالمسح بالزيت المقدس والتتويج وأصبح الملك يمارس نوعا من وظيفة كهنوتية وغدا ممثلا لله على الأرض ، وتغيرت طبيعة السلطة الملكية بنتيجة ذلك ، فلم يعد الملك مستبدا بل أصبح على عاتقه واجبات نحو شعبه وهي رعاية الكنيسة وحماية الضعفاء ، وتوطيد الأمن والعدل ، ويجب على جميع الرعايا أن يعاونوه في هذه المهمة ، وهكذا نرى عودة فكرة الدولة المجردة الى الظهور ولكن على شكل جديد هو « الدولة المسيحية » التي تضم الناس المعمدين . وأصبح هذه المفهوم الدعامة الايديولوجية لكل ملكيات العصر الوسيط .

ولجأ ملوك الكارولنجيين منذ عهد شارلمان إلى تدعيم سلطتهم على اتباعهم بأن طلبوا اليهم تأدية يمين على اشياء مقدسة (الكتاب المقدس ، مخلفات القديسين الخ...) بأن يخلصوا لهم وألا يقدموا على فعل شي يضر بالملك . وهكذا أصبحت التزامات الرعايا تتضمن عدم مخالفة القوانين الدينية والمدنية وخدمة الله والعدالة والسلام .

الكنيسة الكارولنجية:

سمح الاستقرار وتوطيد السلم الداخلي نحو نصف قرن في المملكة الكارولنجية بتفتح الحياة الدينية والحياة الفكرية فيها .

وكان أول العـــاملين على يقـــظة الحياة الدينية المبشرين الانكلو ـ سكسون الذين نصروا جرمانيا بمساعدة حجاب قصر اوسترازيا الذين اعتقدوا أن التعاون مع الكنيسة سيكون عاملا في تدعيم سلطتهم . وكان أول مظاهر هذا التعاون الاصلاح الكامل للكنيسة الفرنجية التي قام بها القديس بونيفيس بطلب من بيبن القصير وأخيه كارلومان . ووضعت اسس هذا الاصلاح في المجامع الدينية الثلاث التي عقدت في اوسترازيا ونوستريا بين عامي ٧٤٢ ـ ٧٤٤ م وتابع ملك الفرنجة الذي غدا حليفا للبابا ذلك الاصلاح ، وفي بداية القرن التاسع اصبحت كنيسة العصر الوسيط راسخة البنيان .

ولنبدأ الكلام عن الكنيسة النظامية . كانت غاليا الشمالية في نهاية العصر الميروفنجي ممتلئة بالأديرة . وكانت هذه الأديرة تمثل الجزء السليم من الكنيسة الفرنجية مع أنها كانت تعاني من الفوضى وتدخل العلمانيين في شؤونها ، وعلى الرغم من أن انظمتها كانت متنوعة ومختلفة ولا تراعى بدقة ، كما أن شارل مارتل صادر قسما كبيرا من ممتلكاتها ووزعه على اتباعه المخلصين .كان اهتمام القديس بونيفيس بالأديرة ضعيفا ، فلم يتوصل الى تعميم القاعدة البندكتية في جميع الأديرة ، واقتصرت هذه القاعدة في زمنه على الأديرة والابويات التي أسست حديثا في جرمانيا ومنها انتقلت الى اديرة وابويات اوسترازيا ، وقد سادت في تلك المؤسسات الرهبانية الاتجاهات الانكلو ـ سكسونية في الرهبنة ، فلم يكن الرعاة كما اراد القديس بندكت ، رؤساء جماعات منعزلة بل كانوا رسلا

للتبشير بالديانة المسيحية ونشرهـا وارتبـطوا بـالكرسي المقـدس مباشرة ، واهتم الرهبان فيها بالاعمال الفكرية أكثر من اهتمـامهم بالاعمال اليدوية .

سعى بيبن القصير ومن بعده شارلمان الى المحـافظة على نظـام الأديرة والى اسـتخدامها لأغراضهما السـياسية .واسـتمرا على اقتـطاع بعض الأراضي مـن أمـلاك الأديرة ومنحهـا الى اتباعهما ،وعملا على تعيين بعض انصارهما مـن العلمـانيين رعاة لبعض الأديرة ، وسـهرا على حسـن ادارة الأراضي التـي بقيت في ملكية الأديرة ، وقد تمتع الرهبان في عهدي بيبن وشارلمان بـالراحة والسعة ، وادى تطبيق نظام الدومين في الاملاك الديرية ، الى تحرير الرهبان من العمل بأنفسهم لاستثمار الأرض ، وبالتالي سمح لهـم بالانصراف الى حياة الدراسة والعمل الفكري .

وكان الملوك الكارولنجيون يعـدون رعاة الاديرة بمثـابة مـوظفين لديهم • فكانوا يختارونهم من الطبقة الاجتماعية نفسها التي كانوا يختارون منها الكونتات أي من ابناء الأعيان الذين كانوا يدبـون في القصر ، وكان الملوك يعهدون الى هؤلاء الرجـال النشـيطين وهـم شباب بوجه عام ، بمهمـات ادارية وسـياسية عليا ، وقـد تـكيفت الكنيسة النظامية بين عامي ٧٥٠ ـ ٨١٤ م مع النظام الاقتصادي السائد في ذلك الوقت وأصبحت مـركزا رئيسـيا للنشـاط الفـكري والفني وعنصرا هاما من عناصر الحضارة الفرنجية •

وطرا تبدل هام في عهد لويس التقي بتأثير الراهب بنوا راعي دير أميان في اكيتانيا الذي كان يرغب في تطبيق القاعدة البندكتية تطبيقا أكثر دقة ، فأصدر الامبراطور لويس التقـي عام ٨١٧ م مـرسوما يفرض بمـوجبه القـاعدة البندكتية على جميع الأديرة في كل أنحـاء الامبراطورية ، واستبدل المفهـوم الانكلو ـ سـكسوني عن الحياة الديرية الرهبانية ، أي المفهوم المنفتح الذي يميل الى العمل الفكري

والتبشير بالمفهوم الذي كان سائدا في بلاد البحر المتوسط أي بالميل الى حياة الزهد والعزلة واقامة الطقوس الدينية ، وأقلع الامبراطور من جهة أخرى ، عن مصادرة املاك الاديرة ومنح بعضا منها الحق في اختيار راعيهـا اختيارا حـرا ، ومنذ ذلك الحين فقـدت الاديرة اشعاعها ، وعادت الكنيسة العصرية والأساقفة الى احتلال المكان الأول في العالم المسيحي . وكانت وظيفة الأسقف ، وهي الوظيفـة الرئيسية في النظام الكنسي ، في حالة انحطاط شديد في بداية القـرن الثامن . ولذا ركز القديس بونيفيس اهتمامه على اصلاحها فعمـل على تعيين أشخاص اكفاء في المناصب الشـاغرة وعلى طـرد رجـال الدين الفاسدين واعادة تنظيم المجامع الدينية . غير أن هذا العمـل كان طويلا وشاقا لم ينته الا في عهد شـارلمان ، واصـبح الملك ، في هذا العهد هو الذي يعين الأسقف ويختاره من رجـال الدين المقيمين في القصر الملكي او من أباء الاديرة المتقدمين في السن ، وهـو في كل الأحوال ، من الرجال ذوي الكفاءة والمقدرة للاطلاع بمهـامه الدينية كراع للجماعة المسيحية في مقاطعة مركزها احـدى المدن الرومـانية القديمة ، وكان الأسقف يختار بنفسه رجـال الاكليروس التـابعين له ، ويعلمهم في المدرسة الملحقة بدار الأسـقفية ويراقـب سـلوكهم الديني ، ويساعد الكونت والملك في مهمتهما لاقـرار السـلم وتحقيق العـدل بين الرعية ، لأن الواجبـات الروحية لم تـكن منفصـلة عن الواجبات المدنية .

وكان رجال الدين الكبار انفسهم خـاضعين لمراقبـة مفتشي الملك ويمكن عزلهم من مناصبهم بموجب قرار مـن المجتمـع الديني الذي كان يرأسه ويدير أعماله الملك . وكان الملك يصدر مراسيم تتضـمن قرارات المجامع الدينية العامة والتعليمات التي توجه الى كبار رجال الدين ، وفي بداية القرن التاسع عهد شارلمان الى المطارنة بمـراقبة الأساقفة التابعين لهم وصـاروا يحملون لقـب « رئيس اسـاقفة » اسوة بـالكنيسة الانكلو ـ سـكسونية ، واصـبحت الكنيسـة الكارولنجية بعد الاصلاح تحتل مكانة هامة في العـالم الكارولنجـي بعد عام ٨١٤ م.

وسمح اصلاح النظام الاسقفي بتدعيم الاجهزة الدنيا في الكنيسة العصرية وتقويتها فالف كهنة المدن روابط تجمع بينهم حسب القاعدة التي وصفها اسقف مدينة مس في أواسط القرن الثامن ، وتم في الريف تنظيم الأبرشيات الذي بدا في العصر الميروفنجي ، ولكن بقي الكهنة الريفيون مرتبطون بالملاك وكانت ثقافة أكثرهم سطحية وسرعان ما انحط مستواهم الفكري لاتصالهم الدائم بالفلاحين غير المثقفين . ومع ذلك حصل تقدم رئيسي في القرن التاسع وهو ان المسيحية عمت في كل الأرياف وقضت على بقايا الوثنية فيها .

وأخيرا تم توحيد النظم والعادات الكهنوتية نتيجة لتضافر جهود البابا وملك الفرنجة ، فقد تلقى شارلمان عام ٧٧٤ م من روما مجموعة القوانين الكنسية المسماة « هدريانا » وجعل منها قانونا للكنيسة الفرنسية ، كما توحدت طرق اقامة الطقوس الدينية في الكنيسة الفرنجية حسب الطرق الرومانية .

وقد كان اصلاح الكنيسة اساسا لاصلاح اخلاقي وثقافي وتجلى هذا في الاصلاح الاخلاقي في سلوك العلمانيين الذين اصبحوا اقل خشونة وادنى قساوة وذلك تحت تأثير رجال الدين ، ومع هذا ، لاينبغي ان يذهب بنا الراي الى القول ان رجال ذلك العصر كانوا يراعون تعاليم الانجيل بدقة ويطيعونها ، فقد كان الدين خارج اسوار المدن أو جدران الكنيسة بدائيا بسيطا ، ولكن حصل شي من التقدم في مراعاة الأصول والقواعد الدينية وخاصة في العائلة الملكية فلم يعد القتل والاغتيال وسيلة من وسائل الوصول الى الحكم وذلك منذ عهد بيبن القصير كما أن لويس التقي طهر القصر الملكي من الخليلات والمحظيات منذ وصوله الى العرش ، وأخذ الشعب الفرنجي ، على وجه الاجمال ، بالتخلص تدريجيا من عاداته البدائية .

الحياة الفكرية والفنية:

شهد العصر الكارولنجي نهضة وتجديدا في الثقافة والفن . ولكن اشعاع هذه النهضة الفكرية ظل محدودا جدا ولم يستفد منه سوى فئة مختارة قليلة العدد من رجال الدين،والواقع ان زعماء اصلاح الكنيسة الفرنجية ، اي القديس بونيفيس ومساعديه . لم يكونوا يتصورون امكانية فصل الحياة الدينية عن الدراسة والتعليم ، وانشأ الرهبان المبشرون مدرسة في كل دير من الاديرة الجديدة التي اسسوها ، فكان اصلاح الكنيسة الفرنجية مرتبطا منذ البداية بالتجديد الثقافي ، ولكن الثقافة الجديدة اتصفت بانها ثقافة دينية ولاتينية ، فهي ثقافة دينية الغاية منها خدمة الرب ، وشرح وايضاح العقائد الدينية ، ومثلت مراكزها القليلة ، من اديرة او كنائس جزرا منعزلة وسط العالم العلماني الجاهل ، وهي ثقافة لاتينية كانت ترمي الى احياء اللغة اللاتينية بدراسة قواعدها ودراسة المؤلفات الكلاسيكية ، وذلك لكي يسهل على رجال الدين مطالعة الكتابات المقدسة الموضوعة باللغة اللاتينية وفهمها ، مثل ترجمة القديس جيروم للكتاب المقدس ، وكتابات آباء الكنيسة الغربية .

بدأت النهضة بتأثير الرهبان الانكلو ـ سكسون وخطت خطوات واسعة في السنوات الأخيرة من القرن الثامن عندما افضت أعمال التوسع الكارولنجية الى احتكاك المقاطعات الفرنجية بايطاليا و (أطراف اسبانيا) حيث كان التراث الفكري والأدبي الروماني لايزال محافظا على بقائه بشكل أقل تحويرا وتشويها ، وعندما اهتم شارلمان شخصيا برفع المستوى الثقافي لرجال الدين في غاليا الشمالية ، ولذا جذب شارلمان الى بلاطه ابرز رجال الفكر الأوربيين في عصره وساعد هؤلاء الامبراطور على تشغيل اطر للتعليم المنهجي في مدارس الأديرة ومدارس الكاتدرائيات ، ومدرسة القصر التي كانت خاصة بابناء الطبقة الارستقراطية الذين كان الملك يختار

الأساقفة منهم ، وكانت نتائج هذه الاصلاحات في البداية متواضعة فلم يكن الكتاب المعاصرون لشارلمان ، يهتمون بان يضعوا مؤلفات اصلية بل بتقليد الكتاب القدماء ، ولعل هـذا كان ضروريا في هـذه المرحلة ، فـالمهم هـو ايجـاد الأدوات الأسـاسية الضرورية للمعرفة ، وكتابة النصوص المسيحية بلغة لاتينية سـليمة ، وتعليم الناس قراءتها وفهمها . وهـكذا عادت اللغـة اللاتينية السـليمة لتصبح لغة العلم والثقافة متميزة بذلك عن اللغات الشـعبية ، وادى صبر ومثابرة النساخين في الأديرة الى انقاذ القسـم الاعظـم مـن التراث الأدبي الروماني ، وثمة حدث هـام ورئيسي في هـذا العصر كان النتيجة المباشرة لهـذه النهضـة الفـكرية الكارولنجية هـو ان اللغات المحلية اكتسبت شخصية مستقلة ، ووافقت المجـامع الدينية في غاليا في مطلع القرن التاسع على ان يكون الوعظ والارشاد باللغة العامية ، ومنذ ذلك الوقت اصبح الغرب مسيحي ثنائي اللغة (اللغة اللاتينية بالاضافة الى اللغة المحلية) .

وقد دفع الجيل الذي نشأ في تلك المرحلة بالتقدم الى الأمام وبـدأ بالانتاج الفكري والأدبي غداة موت شارلمان ، ومما يدل على قـوة واتساع اليقظة الفكرية رد الفعل الذي قام به الراهب بنوا راعي دير اميان الذي خشي من شغف الرهبان بمـطالعة المؤلفـات العلمـانية فأراد تقليص الوقت المخصص للدراسة والأعمال الفـكرية في الحياة الديرية ، وقد ساهم في هذه النهضة ايضا بعض الأجانب وخـاصة الأيرلنديين الذين هربوا امام الغزو السـكانديناني ، ولكن في القـرن التاسع كان جميع الكتاب تقـريبا مـن الفـرنجة الذين اتسـعت افاق افكارهم ، وازداد غنى ثقافتهم وسعى اكثرهم الى انتاج آثار فكرية وادبية شخصية ، واتخذ نشاطهم أربـع اتجـاهات رئيسـية هي :

اللاهوت والتاريخ والسياسة الدينية الاجتماعية ، وشعر التـراتيل الدينية،وينبغي ألا نغالي في تقدير النتاج الأدبي والفـكري في هـذه

الفترة لأنه كان مليئا بالنقل والاقتباس عن الأقدمين وتنقصه الأصالة العفوية ، وعلى هذا تنحصر قيمته في أنه مثل الخطوة الأولى في يقظة الفكر الغربي .

وكانت نهضة الفن في العصر الكارولنجي وثيقة الارتباط ايضا بتوطيد النظام السياسي وباصلاح الحياة الدينية ،ولكنها بدات قبل النهضة الفكرية الثقافية وكانت اكثر أصالة منها واقل تأثيرا بالفن الأجنبي او الفن القديم . فقد كان الفنانون اقل اهتماما بتقليد مخلفات الماضي الروماني ـ اليوناني وتجلت في أعمالهم الميول والاتجاهات التي ظهرت منذ اواخر القرن السابع في البلاد الواقعة بين نهري اللوار والراين حيث تم الانصهار بين التقاليد الفنية القديمة وبين التقاليد الفنية البربرية .

وظهرت براعة المهندسين المعماريين الغاليين في المنجزات المعمارية التي تمت في عهد شارلمان مثل كنيسة جرميني التي بنيت على الطراز التقليدي المحلي ، واذا كان شارلمان قد امر ببناء كنيسة القصر في عاصمته اكس لاشبل على طرازكنيسة سان فيتال البيزنطية في رافين فقد فعل ذلك لكي يثبت ان سلطته لاتقل عن سلطة الأباطرة البيزنطيين ، وكان المهندس المعماري الذي بناها اوسترازيا من مدينة مس .

وقد ازدهرت الحركة الفنية ، مثل الحركة الفكرية ، وكانت التجديدات التي ادخلت على بناء الكنائس في عهد لويس التقي ولوثر ، مثل كاتدرائية رانس وكنيسة سان جرمان في اوكسير تلبي الحاجات الجديدة للطقوس الدينية، وتمثل المرحلة التمهيدية للثورة المعمارية التي جاء بها فن العمارة الرومانى فقد ادى توسع انتشار عبادة بقايا القديسين الى اضافة اجنحة جديدة على الكاتدرائيات القديمة ، كاضافة قبو في المقدمة يضم ضريح القديس الذي يحيط بممرات جانبية ، وكنيسة صغيرة ثانوية يقوم على جانبيها برجان

ويعلوها ناقوس ، وهناك تغيير هام وحاسم في فن البناء في هذا العصر وهو استبدال اعمدة الرخام بأعمدة مبنية من الحجارة واستبدال السقوف الخشبية بالقباب والعقود .

وقد بلغ الفن الكارولنجي أعلى درجات الكمال في تزيين الكتب والمنمنمات والتجليد بصفائح العاج ، وقد ساعد على ازدهار هذا الفن ونموه التجديد الذي أدخل على الطقوس والتراتيل الدينية ، فنشأت عدة مدارس لتعليمه في بعض المدن تخرج منها الفنانون الذين كانوا يستلهمون موضوعاتهم من الرسوم الجدارية ومن المنسوجات المستوردة من الشرق ، وأبدعوا في هذا المجال كثيرا٠

الفايكنغ

نقصد بالفايكنغ العناصر الشمالية التي سكنت شبه جزيرة سكندنافية وشبه جزيرة الدانمارك ، والتي شكلت غاراتها على اوربا شكلا خطيرا في القرن التاسع ، وقد أطلقت هذه العناصر على نفسها ـ وكذلك فعل المعاصرون لها ـ اسم الفايكنغ بمعنى سكان الفيوردات ، اي الخلجان ، وهي الظاهرة الطبيعية التي تمتاز بكثرتها شواطىء الجهات الشمالية الغربية من أوربا .

وإذا كان الفايكنغ يرجعون في الناحية العرقية إلى الأصل التيتوني او الجرماني ، إلا اننا يجب أن نفرق بينهم وبين العناصر الجرمانية الأولى التي اغارت على أوربا في أواخر العصور الوسطى ، ذلك أن الفايكنغ ظلوا برابرة خلص محافظين على أوضاعهم التيتونية البدائية فيما يختص بنظم الحكم والبناء الاجتماعي والديانة ، واستمروا حتى القرن التاسع يعيشون في هذه العزلة بعيدين عن العالم الروماني والبحر المتوسط ، بخلاف غيرهم من العناصر الجرمانية السالفة التي اتصلت بالحضارة الرومانية واحتكت بالمسيحية قبل اقتحامها حدود الأمبراطورية ولم تحاول مملكة الفرنجة مد سيطرتها على تلك العناصر الشمالية حتى كان القرن التاسع ، وعندئذ بدأت هذه العناصر تغير على العالم الأوربي الجنوبي مما جعل بعض الكتاب يقول بأن الفايكنغ هم الذين اكتشفوا أوربا وليست أوربا هي التي اكتشفت الفايكنغ .

ولم يختلف الفايكنغ عن غيرهم من العناصر البربرية الجرمانية في نظمهم وعاداتهم واسلوب حياتهم الاان طبيعة بلادهم الجبلية ذات الغابات والأحراش والمستنقعات ، لم تترك لهم مجالا يعيشون فيه سوى السهول الساحلية ، وهي لا تعدو في كثير من الأحيان اشرطة ضيقة من الأرض الصعبة وهكذا دفعت الطبيعة الفايكنغ نحو

البحر ، فبرعوا في بناء السفن الصغيرة المكشوفة التي اتصفت بطولها وقلة عرضها وسارت بالمجذاف أو الشراع ، وجابوا بها شواطيء أوربا من البحر البلطيكي حتى البحر المتوسط ، بل قاموا ايضا برحلات بعيدة في المحيط الاطلسي حتى اصبحوا أعظم الشعوب البحرية التي عرفتها أوربا في العصور الوسطى . لذلك اتخذت اغارات الفايكنغ شكلا بحريا اقرب الى القرصنة منه إلى الزحف البرى الذي اتصفت به هجمات بقية الشعوب التيتونية الجرمانية قبل ذلك بأربعة قرون أوخمسة ، كذلك عرف عن الفايكنغ مهارتهم في القتال ، وقوة تسلحهم فكان كل محارب منهم مزودا ببلطة وحربة طويلة ، زيادة على درع واق وخوذة من الحديد .

أما الأسباب التي دفعت الفايكنغ الى الخروج من بلادهم والقيام بهذه الحركة التوسعية الهائلة ، فيمكن تفسيرها على أسس اقتصادية واجتماعية وسياسية،فمن الناحية النفسية اثبت البحث التاريخي دائما أن الشعوب المتأخرة يغلب عليها شعور الحسد والطمع للبلاد المتحضرة القريبة منها ، والرغبة في الاغارة عليها لنهب ثرواتها أو على الأقل مشاركتها حضارتها وعيشها الهني . وهذا الشعور كان أحد العوامل التي حركت الجرمان نحو اراضي الامبراطورية الرومانية المتوسطية من قبل ، كما يمكن القول بأنه أحد البواعث الهامة الكامنة خلف حركة الفايكنغ في القرن التاسع ومن الناحية الاقتصادية يلاحظ أن الفايكنغ كانوا عملاء تجاريين قدامى للفريزيين قبل أن يقوم الفرنجة بغزو فريزيا .

لذلك اهتز الفايكنغ عندما غزا الفرنجة فريزيا وسكسونيا نظرا لما ترتب على هذا الغزو من شل نشاطهم التجارى ، وبالتالي مضايقتهم اقتصاديا ، ومن الناحية الاجتماعية الاقتصادية يقال أن أعداد الفايكنغ تزايدت في القرن التاسع حتى ضاقت عليهم بلادهم الفقيرة ولم تعد تتسع لهم الأشرطة الساحلية الضيقة الممتدة على شواطيء سكندناقية والدانمرك، مما دفعهم الى الهجرة الى أرض الله الواسعة والاغارة على البلاد القريبة ، بغية الحصول على ما

يمسك رمقهم ويسد حاجتهم ، هذا وان كانت لا توجد في الواقع ادلة تاريخية حاسمة تثبت ان ازدياد السكان وتضخمهم كان سببا اساسيا لهجرة الفايكنغ في القرن التاسع فان ذلك مقبول كتعليل على سبيل الفرضية،واخيرا يأتي العامل السياسي مثلا في نشأة الملكية بين الفايكنغ وبخاصة في النرويج حيث تركزت السلطة قرب منتصف القرن التاسع في يدي هارولد الأشقر ، الأمر الذى جعل كثيرا من الزعماء يفضلون الهجرة الى أوطان جديدة على الخضوع لنظام لم يألفوه ، وهناك من الدلائل ما يشير الى أن السويد والدانمرك . شهدتا ايضا تطورات سياسة داخلية أدت بكثير من جموع الفايكنغ الى الهجرة ، وهنا نلاحظ أن الفريزيين ظلوا منذ القرن السادس حتى منتصف القرن الثامن يمثلون أعظم قوة بحرية وتجارية في شمال غرب أوربا ، حتى أن قوتهم كانت عقبة كأداء في سبيل توسع الفايكنغ جنوبا . ولكن حدث عندما اصطدم الفرنجة بالفريزيين وحطموا قواتهم على ايدي شارل مارتل سنة ٧٣٤ م ، ثم شارلمان سنة ٧٨٥ م أن زالت هذه العقبة من طريق الفايكنغ واصبح طريق التوسع جنوبا مفتوحا أمامهم .

وإذا كنا في حديثنا عن الفايكنغ نقسمهم الى نرويجيين وسويديين ودانيين (نسبة الى الدانمرك) فإننا يجب أن نشير الى أن هذا التقسيم لا يعني وجود فوارق بين هذه الفئات الثلاث ، وانما كل ما يقصد هو الاشارة الى جماعات الفايكنغ التي سكنت الأجزاء الغربية أو الشرقية من سكندنافية أو شبه جزيرة الدانمرك ، وبعبارة أخرى فان العصر الكارولنجي لم يعرف وحدات سياسية تحمل اسم النرويج أو السويد أو الدانمرك .

وهنا نلاحظ أثر التوجيه الجغرافي في توزيع غزوات الفايكنغ ، فالسويديون الذين يواجهون شرقي أوربا عبروا البلطيق وسلكوا الطرق الطبيعية التي هيأتها وديان الأنهار للوصول الى سهول شرقي أوربا والبحر الأسود ، أما النرويجيون فقد اتجهوا غربا فوصلوا انكلترا وايرلندا والجزر القريبة ، فضلا عن الجزر

الشمالية في المحيط الأطلسي . هذا في حين اتجه الدانيون نحو الجنوب والغرب فهددوا شواطي الامبراطورية الكارولنجية في المانيا وفرنسا ، فضلا عن ايرلندا والجزر القريبة .

ويمكن تقسيم الأدوار التي مرت بها علاقة الفايكنغ بغرب أوربا الى ثلاثة ادوار :الاول دور الهجوم ، والثاني دور الاستقرار ،والثالث دور الدفاع ، أما دور الهجوم فقد بدأ في أواخر القرن الثامن- أي منذ سنة ٧٨٩ - عندما أخذ الفايكنغ يهددون شواطي انكلترا واسكوتلندا وايرلندا وفي ذلك الوقت لم تحل قبضة شارلمان القوية دون تعرض امبراطوريته لهجمات الفايكنغ ، ولكن هذه الهجمات لم تأخذ شكلا خطيرا الا بعد وفاة شارلمان ، ثم بوجه خاص وفاة لويس التقي ،وقد اتخذ نشاط الفايكنغ في ذلك الدور شكل غزوات صيفية حيث كانوا يخرجون من بلادهم صيفا عندما يعتدل الجو ويعودون اليها في الخريف ، وقد اكتظت سفنهم بالغنائم والاسلاب ، على أن حركة توسع الفايكنغ لم تلبث أن دخلت دورا جديدا عند منتصف القرن التاسع عندما اخذوا يقضون فصل الشتاء خارج بلادهم في معسكرات حصينة أو في الجزر المنيعة الواقعة قرب شواطىء البلاد التي كانوا يغيرون عليها أو عند مصبات أنهارها ، وبعد أن كانوا في الدور الاول يأتون على هيئة جماعات صغيرة أصبحوا في هذا الدور الثاني يغيرون على بلاد غرب أوربا في هيئة جموع ضخمة ومعهم نساؤهم وأولادهم بغية الاستقرار في البلاد التي يغزونها ، وهكذا أقام الفايكنغ مستعمرة قصيرة العمر في ايرلندا سنة ٨٤٣ م كما قضوا الشتاء لأول مرة في انكلترا سنة ٨٥١ م وكذلك أخذوا يستقرون حوالي ذلك الوقت في الجزء الغربي من فرنسا الذي عرف فيما بعد باسم نورماندي ولكنهم أخذوا يتوغلون تدريجيا داخل البلاد ، وصار كلما هجر الاهالي الأجزاء القريبة الى الداخل تبعهم الفايكنغ في حين التزم هؤلاء الاخيرون جانب الدفاع ،وقد بدأت هذه المقاومة من جانب الكونت أود حاكم باريس مما أدى إلى اخفاق حصار الفايكنغ لباريس (٨٨٠ - ٨٨٧ م) وقبل ذلك بقليل كان الفرد ملك وسكس بانكلترا

قد أنزل بالدانيين هـزيمة كبـرى في ادنجتـون سـنة ٨٧٨ ٠وفي سنة ٨٩١ اسـتطاع ارنولف ـ أحـد ملوك البيت الكارولنجـي في المملكة الوسـطى ـ أن ينزل هـزيمة بـالفايكنغ في مـوقعة ديل في برابانت ٠

أغارات الفايكنغ على الامبراطورية الكارولنجية

بدأت اغارات الفـايكنغ على الامبـراطورية الكارولنجية في حياة شارلمان الذي ادى توسعه شمالا الى ايجاد حدود مشتركة بينه وبين الدانيين ، ولم يلبث أن ساد سوء التفاهم العـلاقات بين الطـرفين عندما دخل بعض السكسون الهاربين من وجه شارلمان تحت حماية الدانيين ، هـذا في الوقـت الذي أخـذت بعض سـفنهم تغير على اكوتين . ومنذ ذلك الوقت لم تنقطع اغارات الفايكنغ على شـواطىء الامبراطورية الغربية بحيث لم تمر سـنة واحـدة دون أن يدهمـو احدى القرى أو المراكز الساحلية ، ويبدو أن هذه الاغارات أفـزعت شارلمان فأعد اسطولا قويا في موانيء نسـتريا لحمـاية شـواطىء امبراطوريته من هجمات الفايكنغ ، ومع ذلك قد استمر غود فـري ملك الدانيين يسبب متـاعب خـطيرة لشـارلمان في جنوب البحـر البلطيكي وشواطىء فريزيا حتى حاول شارلمان مفاوضتهم والاتفاق معهم فيما بين ٨٠٤ ـ ٨٠٩ م كوسيلة لدفع شرهم ثم حدث في عهد لويس التقي خليفة شارلمان ـ أن استغل الدانيون فرصة الخلافات والحروب الداخلية التي قامت حول تقسيم الامبـراطورية ، وانزلوا قواتا ضخمة على شواطىء فريزيا سنة ٨٣٥ ونهبوا أوترخت مركز رئيس اساقفة فريزيا ودورشتد أكبـر مـواني الاقليم ، وفي العـام التالي أغار الدانيون على فلاندرز وأحرقوا مدينة انتورب ثـم عادوا سنة ٨٣٧ إلى مهاجمة جـزيرة والشرن عند مصـب الراين وأوغلوا حتى وصلوا الى نموجن ، ولكنهم لم يلبثوا أن لاذوا بالفرار عندمـا حضر اليهم لويس التقي على رأس جيشه ، ويبدو أن لويس حـاول شراء مسالمة الدانيين بالهدايا والمال كما منحهم المنطقة في دورشـتد سنة ٨٣٩ ليقيموا فيها ويحلوا دون وقوع اعتداءات جديدة من جانب

الفايكنغ ، وإن كانت هذه الاجراءات واشباهها لم تؤد في الواقع إلا إلى زيادة مطامعهم في اراضي الامبراطورية .

ويلاحظ ان انهار فرنسا الغربية مثل السين واللوار والجارن كانت بمثابة طرق عظيمة سهلة مهدت للفايكنغ السبيل الى جوف البلاد ، فأوغلوا في نهر اللوار حتى تور حيث نهبوا كتدرائيتها ، ودخلوا في الجارن حتى تولوز ، في حين أوصلهم السوم إلى اميان والسين إلى باريس . وقد ساعد الفايكنغ على التوغل في الامبراطورية الكارولنجية الحالة السيئة التي أمست فيها هذه الامبراطورية في القرن التاسع من نزاع وحروب اهلية بين الامراء والحكام ، ومهما يكن من امر فان اغارات الفايكنغ اخذت تشتد على فرنسا بشكل خطير بعد وفاة لويس التقي سنة ٨٤٠ اذ أوغلوا في نهر السين لاول مرة سنة ٨٤١ واستولوا على روان ، وربما شجع الفايكنغ في سياستهم الهجومية عندما لجأ اليهم لوثر بالذات وحضهم على مهاجمة أراضي منافسيه ، وذلك اثناء النزاع الذي قام حول تقسيم الامبراطورية عقب وفاة لويس التقي ، وهكذا اوغل الفايكنغ في اللوار قبيل عقد اتفاقية فردان مباشرة واحرقوا ميناء نانت . ولم تلبث أن ازدادت اغارات الفايكنغ حدة وعنفا عقب تقسيم الامبراطورية الكارولنجية سنة ٨٤٣ حتى اصبح هذا الخطر بمثابة الشغل الشاغل للاخوة الثلاثة الذين اقتسموا الامبراطورية ، وكان لويس الالماني اوفر اخوته حظا لان قبائل السكسون القائمة على حدود دولته هيأت درعا قويا يحمي هذه الدولة من خطر الفايكنغ ، ومع ذلك فقد شهدت بلاد لويس الالماني حرق مدينة هامبرغ سنة ٨٤٠ ففر اسقفها الى يرمن ، كما أن قوة كبيرة من الفايكنغ أوغلت في نهر الالب سنة ٨٥١ م وهزمت امراء السكسون ثم عادت ظافرة الى الدانمارك بعد أن نهبت شطرا كبيرا من سكسونيا .

أما الأخ الثاني لوثر فكانت خسارته فادحة ، اذ اخذ الفايكنغ يغيرون على شواطيء فريزيا سنويا ، وعندئذ حاول لوثر أن يمنح جزيرة والشون عند مصب الراين لزعيم الدانيين المسمى رودريك ليسترضيه ويتفادى شره ، ولكن هذا الحل لم يجد اذ سرعان ما

اصبحت شواطيء فريزيا (الاراضي المنخفضة) قلاعا للفـايكنغ ، استغلوها في التواغل داخل البلاد حتى غدا لوثـر في قصره بمـدينة أخن لايامن على نفسه من خطرهم .

وأما الاخ الثالث ـ وهو شارل الاصلع فكان اسوأ الثلاثة حـظا لان مملكته امتازت بشاطيء طويل مكشوف ، وعدد كبير من الانهار التي ساعدت الفايكنغ على التوغل داخل البلاد وقد استغل الفايكنغ فرصة انشغال شارل في حرب اهلية مع ابن أخيه بيبـن امير اكوتين وجددوا هجماتهم على الاجـزاء الشـمالية مـن مملكتـه وكان ان تجاسروا سنة ٨٤٣ على قضاء الشتاء لاول مرة في نستريا ، بعد ان استولوا على دير نوار موتبية ، واتخذوه قـاعدة لمهـاجمة الاجـزاء الجنوبية من فرنسا ، ولم يلبـث أن سـاعد النزاع بين بيين وعمـه شارل على ازدياد نفوذ الفايكنغ ، اذ استعان بهم الاول وسـاعدهم على التوغل في حوض الجارون حتى وصلوا الى مدينة تـولوز ، وفي ذلك الوقت كان الفايكنغ قد عادوا الى تهديد حوض السين من جديد فأغاروا على مدينة روان ونهبوها للمرة الثـانية سـنة ٨٤٥، وظلوا يتقدمون حتى وصلوا الى اسوار مـدينة بـاريس . وهنا لم يجـرؤ شارل الاصلع على صدهم أو الوقوف في وجههم فحصـن نفسـه في مرتفعات مونتمارتر ، وفي ديرسانت دنيس ، وترك باريس ليدخلهـا الفايكنغ وينهبوها ،ولم تقف اغارات الفايكنغ على فرنسا عند هـذا الحد ، بل انهم اغاروا على بوردو ـ كبرى مدن الجنوب ـ ونهبوها سنة ٨٤٧ ، ثم استولوا عليها تماما بعد قليل فـظلت بـايديهم عدة سنوات ، ومن الواضح ان استيلاء الفـايكنغ على مثـل هـذه المدن الضخمة كان يعود عليهم بارباح طائلة وغنائم وفيرة ، اغرتهـم على مواصلة نشاطهم التدميري بأعداد اكبر حتى وصـلت مملكة شـارل الاصلع الى درجة يرثى لها من الخراب والانحلال ، وقد حدث عندما تجددت هجمات الفايكنغ على حوض السين سنة ٨٥٢ ان اتى لوثر على رأس جنده لمساعدة أخيه شارل الأصلع ، ولكن الاخير لم يلبث أن عقد صلحا مع زعيم الدانيين ومنحه مبلغا طيبا من المال ، واجاز له الاستقرار في منطقة قرب اللوار ، ومن ثم انسحب لوثر عائدا الى

بلاده ، ولم تلبث أن تجددت الحروب الاهلية بين لويس الالماني واخيه شارل الاصلع سنة ٨٥٤ فأتاحت فرصة جيدة للدانيين ، فاوغلو في مملكة شارل وحرقوا نانت وتور ونهبوا المناطق المحيطة بانجرزوبلوا ، وكذلك لم تقاومهم سوى مدينة اورليان (٨٥٣ ـ ٨٥٤) .

وخير ما يوضح لنا عجز ملوك البيت الكارولنجي عند منتصف القرن التاسع عن دفع خطر الفايكنغ انهم لجأوا الى شراء مسالمتهم بالمال من ذلك ما فعله شارل الاصلع سنة ٨٦٠ من عقد معاهدة مع ولاند احد زعماء الفايكنغ تعهد فيها الملك بدفع مبلغ ضخم من المال ليقوم الاخير باخلاء نستريا من الغزاة ، ولكي يحصل الملك الكارولنجي على هذا المبلغ الذي تعهد بدفعه للفايكنغ فرض على رعاياه ضريبة ثقيلة ، بحيث لم تعف منها الكنائس والاديرة والنبلاء والتجار بل فقراء الفلاحين ، وهكذا جاءت الضريبة لتضيف حملا جديدا الى الاثقال التي كان يتحملها اهالي دولة الفرنجة ، في الوقت الذي اتضح فيه عجز ملوكهم عن الدفاع عنهم وعن حريتهم .

والواقع أن الفترة الواقعة بين سنتي ٨٥٥ ـ ٨٨٧ تعد أحلك عصور التاريخ الغربي ، ففي سنة ٨٥٥ توفي لوثر ، فكان ذلك نذيرا لحرب اهلية جديدة بين ابنائه واخوته حول اقتسام مملكته ، وفي هذه الظروف لم يتوقف خطر الفايكنغ ، بل ازداد عنفا مما دفع شارل الاصلع الى اصدار مرسوم بيستر سنة ٨٦٤ لتعديل نظام الدفاع وجعله يعتمد على جيوش خفيفة سهلة الحركة بدلا من الخيالة الثقيلة من جهة ، ولعمل جسور وعقبات في مجاري الانهار لتعوق تقدم سفن الفايكنغ من جهة اخرى . على أن وفاة لويس الالماني سنة ٨٧٦ ، ثم شارل الاصلع سنة ٨٧٧ م زادت من انقسام الامبراطورية الكارولنجية ، ومن ضعفها وعجزها عن مقاومة اخطار الفايكنغ ، وفقد السوم باكمله بما فيه من مدن واديرة مهمة ، كذلك تعرضت فريزيا وفلاندرز للمصير نفسه ، اذ هيأت أنهار الراين والميز والشلد وغيرها طرقا صالحة لتوغل الفايكنغ حتى

وصلوا أخن وهددوا كولونيا ، وصحيح أن لويس الثالث ملك فرنسا استطاع ان يحرز نصرا على الفايكنغ في موقعة سوكورت سنة ٨٨١ م حتى انه ذبح منهم ثمانية الاف وطردهم خارج حدود مملكته ، لكن هذا النصر لم يكن كافيا للقضاء على خطرهم وهكذا لجأ في سنة ٨٨٢ شارل السمين الى مصالحة غودفري أحد زعماء الفايكنغ فعقد معه معاهدة السلو حيث وافق شارل على منح الفايكنغ مبلغا من العملة الفضية فضلا عن اقليم فريزيا ليكون دوقية لغودفري الذي تزوج ابنة أخ الملك شارل ، وفي مقابل كل ذلك انسحب غودفري من مملكة شارل السمين وتعهد باعتناق المسيحية وبان يظل تابعا للملك شارل .

ولكن هؤلاء الفايكنغ الذين غادروا المانيا وفقا لمعاهدة السلو إتجهوا نحو دستريا وهو امر لم يهتم له شارل السمين في قليل او كثير ما داموا سيجلون عن مملكته لذلك كان شتاء ٨٨٢ ـ ٨٨٣ قاسيا بالنسبة للجهات الشمالية من فرنسا ، اذ دهمت المنطقة جموع ضخمة من الفايكنغ . وهنا لم يحاول الملك كارلومان (٨٧٩ ـ ٨٨٤) أن يحذو حذو سلفه لويس الثالث ، وانما فضل أن يقتفي سياسة شارل السمين فدفع مبلغا طائلا من المال للغزاة مقابل أن يتركوا بلاده وينقلوا ميدان نشاطهم الى بلدان اخرى ، وقد اتيحت لشارل السمين بعد موت كارلومان ملك فرنسا فرصة توحيد معظم اجزاء امبراطورية شارلمان تحت سيادته ، ولكن الفارق كان عظيما بين شخصيتي شارل السمين وشارل العظيم ، وهكذا امتازت السنوات الثلاث التي وجد فيها شارل السمين الامبراطورية (٨٨٤ ـ ٨٨٧) بضعف السلطة المركزية ، وتحلل الرعايا من اخر الروابط التي كانت تربطهم بالملكية الكارولنجية .

وسرعان ما اثبتت الحوادث أن الاتفاقات التي عقدها ملوك الغرب مع الفايكنغ لاقيمة لها ما دام هؤلاء الملوك لايملكون القوة التي يجبرون بها أعداءهم على احترام كلمتهم ، لذلك لم يلبث أن عاد الفايكنغ إلى تهديد المانيا وفرنسا ، حتى اشتدت غاراتهم بصفة خاصة في السنوات العشر الاخيرة من القرن التاسع ، فدمروا

فلاندرز كما تعرض وادي الجارون والركن الجنوبي الغربي من فرنسا لغارات اخرى خطيرة ، فاستولى الفايكنغ على بوردو مرتين ، ونهبوا بواتيه وتولوز ، بل ان اساطيلهم دار ت حول شبه جزيرة ايبيريا واغارت على الموانيء الاسلامية في الاندلس وهددت قواتهم بعض مدن الداخل ، وحرضت هذه الغارات المدمرة السلطة الاموية على تحصين المدن وتقوية دفاعاتها وايلاء الاسطول المزيد من الاهتمام ، وفي فترة تاليه تبادل السفارات مع الفايكنغ .

كما وهدد الفايكنغ الجزء الغربي من حوض المتوسط وتسللوا في الرون حتى نهبوا افينون ، واذا كانت بعض المدن المسورة والحصون قد استطاعت الثبات والدفاع عن نفسها ضد هجمات الفايكنغ ، فان الاديرة والكنائس لم تكن لها درع يحميها سوى حرمتها الدينية ، وهذا سلاح لم يعترف به اولئك المغيرون الوثنيون ، لذلك شدد الفايكنغ هجماتهم على الاديرة والكنائس بعد ان خبروها فوجدوها مخبأ للثروات والكنوز الامر الذي نشا عنه اندثار كثير من هذه المؤسسات الدينية في ذلك العصر ، ولما كانت الاديرة حينذاك هي المراكز الاساسية للنشاط التعليمي والحضاري في اوربا للعصور الوسطى فان الخسارة التي لحقت الحضارة الاوربية بتدمير الاديرة وفرار اهلها أو قتلهم كانت اعظم من أن تقدر .

على أن حوض السين ظل الهدف الاساسي لهجوم الفايكنغ في أواخر القرن التاسع ، وقد تعرضت باريس في أواخر سنة ٨٨٥ م لهجوم كبير قام به اربعون الفا منهم جاؤوا في سبعمائة سفينة ، وتولى قيادتهم عدد كبير من زعمائهم المدربين على شؤون الغزو ، واستطاعت باريس الصمود عدة اشهر ومقاومة الهجوم والحصار ، بفضل مهارة كونت أود حاكمها ، حتى وصل أخيرا (تشرين ثاني ٨٨٦) الامبراطور شارل السمين ليكرر تمثيلية السلو مرة اخرى وبعقد صلحا مشينا مع الفايكنغ تعهد لهم فيه بدفع مبلغ ضخم من المال ثمنا لانصرافهم عن باريس كما سمح لهم بالاقامة في برغنديا .

على أن الاهمية التاريخية لهذا الحصار لاترجع الى ظهور شخصية كونت أود على مسرح الحوادث فحسب ، بل ترجع ايضا إلى ظهور اهميته باريس نفسها وانتشار شهرتها لتصبح عاصمة فرنسا فيما بعد .

وكان أن تم اختيار اود ملكا على فرنسا في شباط سنة ٨٨٨ بعد عزل شارل السمين في العام السالف . ولم يلبث أن احرز اود انتصارا جديدا على الفايكنغ بعد تتويجه بعدة اشهر ليثبت مرة اخرى صلاحيته للحكم ، ولكن الفايكنغ لم يتركوه يهنأ بالاستقرار ، إذ عادوا بعد قليل إلى محاصرة باريس للمرة الرابعة ، إلا أنه يبدو أن أودو الملك كان أقل مقدرة على الدفاع عن باريس من اود الكونت ، اذ اقتفى هو الأخر سنة شارل السمين واشترى مسالمة الفايكنغ بالمال وعندئذ انسحبوا الى بريتاني ، انما لم يلبث أن عاد الفايكنغ ـ كما هي عادتهم ـ الى تهديد أواسط فرنسا ، وعندئذ أنزل أود بهم هزيمة ساحقة عند مونتبليه واسر زعيمهم واعدمه سنة ٨٩٢ م .

واثر هذا اخذ نبلاء فرنسا يشعرون بضعف خطر الفايكنغ ، مما دفعهم الى التآمر ضد ملكهم اود ، فنظروا اليه على أنه احدهم وارسلوا يستدعون شارل البسيط ـ وريث البيت الكارولنجي ـ من انكلترا ، ومن ثم بدأت فترة من الحروب الاهلية استمرت ست سنوات بين اود وشارل البسيط ، ولم تنته الا سنة ٨٩٨ م ، بوفاة اود ، وقد استمر شارل البسيط يحكم الجزء الغربي من دولة الفرنجة منذ سنة ٨٩٩ حتى مقتله سنة ٩٢٩ واظهر في هذه المدة براعة في محاربة الفايكنغ على الرغم من صغر سنه . ولم تكن اغارات الفايكنغ قد انقطعت حينئذ بل على العكس انتهزوا فرصة الحروب الاهلية بين أود وشارل البسيط وعادوا الى نستريا ليجتاحوها من جديد ، وهنا نلاحظ أن اغارات الفايكنغ امتازت ـ في هذه المرحلة ـ بمقاومة الاهالي لها من جهة ، وبقلة الغنائم التي اصبح الفايكنغ يحصلون عليها من جهة اخرى ، بعد أن احاطت المدن والاديرة انفسها باسوار منيعة .

وعندما أخفق الفايكنغ في تثبيت اقدامهم في برغنديا نتيجة لمقاومة البرغنديين أخذوا يوجهون جهودهم نحو الجزء الذي نسب اليهم فيما بعد ـ نورماندي ـ وتشير الوثائق المعاصرة الى ان الفايكنغ اتخذوا روان عند مصب السين مركزا لهم ومنها أخذوا ينتشرون على امتداد شاطيء هذا الجزء الغربي من فرنسا بين السوم وبريتاني ، وعلى الرغم من أنهم أخفقوا في الاستيلاء على شارتر الا أن شارل البسيط اختار ان يسلك معهم الاسلوب نفسه الذي اتبعه الفرد ملك وسكس قبل ذلك بثلاثين سنة ، فعرض على زعيمهم رولو إقليما واسعا يستقر فيه مع اتباعه . وكان أن تمت مقابلة بين شارل البسيط ورولو عند سانت كلير سنة ٩١١ م حيث عقدت اتفاقية شهيرة بين الطرفين تسلم بمقتضاها الفايكنغ الاقليم الساحلي الممتد من السوم حتى بريتاني ، وهي المنطقة التي نسبت الى الشماليين (أوالنورمان)فعرفت منذ ذلك الوقت باسم نورماندي .

والواقع ان اتفاقية سانت كلير لم تكن اكثر من اعتراف بالامر الواقع ، لان هذه المنطقة كان معظمها بأيدي الفايكنغ فعلا ، فهم الذين بدأوا يغيرون عليها منذ سنة ٨٤١ م ولم تنقطع اغاراتهم عنها الا حوالي سنة ٩٦٦ م اي بعد اتفاقية سانت كلير باكثر من نصف قرن ، ومهما كان الامر فان الفايكنغ اصبحوا بحكم هذه الاتفاقية يحكمون نوماندي حكما مستقلا معترفا به من الملكية الفرنسية ، مع اقرارهم بتبعية اسمية لملك فرنسا ، ومن الواضح ان الدافع الاساسي الذي شجع شارل البسيط على اتخاذ هذه الخطوة والقاء نورماندي للفايكنغ لقمة سائغة هو رغبته في ايجاد خصم قوي يقف في وجه كونت باريس ، ومهما كان الامر فان رولو دوق نورماندي سرعان ما اعتنق المسيحية وتبعه معظم رجاله ، واثبتت الحوادث نجاح هذه التجربة التي أجراها شارل البسيط ، اذ نزحت معظم جماعات الفايكنغ المتناثرة في فرنسا لتعيش تحت حكم رولو في نورماندي ، وبذلك يكون شارل قد ضحى بجزء من بلاده لينقذ بقية البلاد . والمعروف عن الفايكنغ انهم كانوا ـ اينما حلوا ـ يظهرون

مرونة سريعة في تقبل حضارة وعادات واوضاع اهالي البلاد الاصليين ، لذلك لم يكد يمر قرن من الزمن على غزو الفايكنغ لاقليم نورماندي حتى تأقلم النورمان واصبحوا فرنسيين في لغتهم ونظمهم وثقافتهم وان ظلوا محتفظين بكثير من مظاهر الحيوية والحماسة والعنف التي اتصف بها اسلافهم الاوائل ، مما جعلهم يقومون بدور مهم في حكومات فرنسا وانكلترا وايطاليا وصقلية ، وهي الجهات التي غزاها النورمان فيما بعد .

غارات الفايكنغ على انكلترا:

كانت انكلترا بين اول بلدان اوربا التي تعرضت لاغارات الفايكنغ اذ شهدت هذه البلاد غارات قامت بها بعض سفنهم في سنوات ٧٨٧ م و ٧٩٣ و ٧٩٤ م وبعد هذا التاريخ لم نسمع اغارات اخرى على انكلترا حتى سنة ٨٣٥ ، ويبدو انهم في الفترة الواقعة بين سنتي ٧٩٤ و ٨٣٥ وجهوا الجزء الاكبر من نشاطهم نحو ايرلندا .

وقد اطلق اهل انكلترا من السكسون اسم الدانيين » على جماعات الفايكنغ التي كانت تهاجم بلادهم من خر القرن الثامن ، وعندئذ بدأ هؤلاء السكسون يشربون الجرعة نفسها التي سبق أن سقوها لأهالي بريطانيا ـ في القرن الخامس والسادس ، ومهما يكن من امر فانه على الرغم من قسوة اغارات الفايكنغ على انكلترا وما لقيته البلاد على ايديهم من تخريب وفوضى إلا انه من الثابت أن الفائدة التي حصلت عليها انكلترا من وراء هذه الاغارات فاقت الخسارة التي منيت بها ، ويكفي انها ادت الى تكتل انكلترا السكسونية على هيئة مملكة واحدة .

اما اغارات الفايكنغ على انكلترا منذ سنة ٨٣٥ فقد بدأت في الجنوب والغرب ثم لم تلبث أن اخذت تمتد شرقا ، ويبدو أن وسكس تلقت الجزء الاكبر من ضربات الفايكنغ في هذا الدور .

وليس معنى ذلك أن بقية اجزاء البلاد نجت من خطرهم ، فقد اجتاحوا عدة مناطق حتى انه في سنة ٨٤٤ لقي ادوولف ملك نورثمبريا مصرعه على ايديهم .

ودخلت نهر التيمز سنة ٨٥١ ثلاثمائة وخمسون سفينة من سفن الدانيين فاستولوا على بورى ولندن ، ثم عبروا التيمز حيث انزل بهم اثلووف ملك السكسون الغربيين هزيمة ساحقة عند أوكلى وذبح منهم عددا كبيرا . ومهما تكن قيمة هذا النصر ، فقد قلل من اثره أن الدانيين قضوا الشتاء لأول مرة سنة ٨٥١ م في انكلترا ، وبذلك اخذوا ينتقلون من دور الهجوم الخاطف والعودة السريعة إلى دور الاستقرار .

وبعدما لجا شارل الاصلع الى تخليص اراضي نهر السين من جموع الدانيين عن طريق شراء جلائهم بالمال سنة ٨٦٦ لجأت هذه الجموع الى انكلترا حيث اغارت في العام التالي (٨٦٧)على يورك ، واستولوا عليها دون أن يلقوا مقاومة كبيرة بسبب ما كان هناك من نزاع حول عرش نورثمبريا ، ولم يؤد انتهاء هذا النزاع الى اضعاف الدانيين أو طردهم ، بل إن مرسيا دانت لهم بالطاعة سنة ٨٦٩ كما عبروا مرسيا الى انجيليا الشرقية سنة ٨٧٠ حيث انزلوا هزيمة بملكها ادموند وقتلوه ، ومن ثم عد هذا الملك قديسا وشهيدا في نظر العصور التالية .

والواقع انه لم ينقذ بقية انكلترا من خطر الدانيين وتوسعهم سوى جهود الفرد العظيم ملك وسكس (٨٧١ ــ ٨٩٩) ، حتى انه سنة ارتقائه العرش صارت ذات اهمية بالغة في تاريخ انكلترا . ذلك لان ألفرد العظيم ابلى بلاء حسنا في الدفاع عن بلاده ضد الدانيين حتى انه اشتبك معهم في تسعة مواقع حربية اثناء السنة الاولى من حكمه ، الامر الذي جعل الدانيين يفلحون بعقد الهدنة ويولون ابصارهم شطر مرسيا ، على أن الصراع سرعان ما تجدد بين ألفرد والدانيين سنة ٨٧٥ م . وعندئذ واجه ألفرد كثيرا من الصعاب في

هذا الدور ، ولكنه استطاع ان يتغلب عليها جميعا وانزل بالدانيين هزيمة ساحقة عند ادنجتون سنة ٨٧٨ م وكان أن طلب الدانيون الصلح فتم عقد صلح ودمور سنة ٨٧٨ على اساس جلائهم عن وسكس وتقديم الضمانات والرهائن ، فضلا عما وعد به ملكهم من اعتناق المسيحية ، ولكن ملك الدانيين في انكلترا لم يلبث أن خرق شروط الصلح سنة ٨٨٤ ،الامر الذي جعل ألفرد يحاربهم مرة اخرى حتى انتهى الامر بعقد صلح جديد سنة ٨٨٥ ، حددت بمقتضاه الحدود الفاصلة بين المملكتين بالخط الممتدمن مصب نهر التميز حتى شير ، بمعنى أن لندن والجزء الأكبر من مرسيا كانت من نصيب الفرد ، في حين التزم الدانيون الاراضي الواقعة شمالي هذا الخط.

وقد تمتعت انكلترا بعد ذلك بالسلام عدة سنوات ، قضاها الفرد في اعادة تنظيم جيشه وتقوية مملكته بوجه عام ، في حين وجه الفايكنغ جهودهم الى القارة . وفي ذلك الوقت استاء الفرنجة شرقي الراين من مسلك شارل السمين تجاه الفايكنغ ، وهو المسلك المتصف بالضعف وشراء مسالمتهم بالمال ، فاختاروا ارنولف ملكا عليهم سنة ٨٨٧ م ولم يلبث ارنولف هذا أن احرز نصرا على الفايكنغ قرب مدينة لوفان الحديثة سنة ٨٩١ ، الامر الذي جعلهم ينقلون ميدان نشاطهم مرة أخرى الى انكلترا . وهكذا تعرضت انكلترا في خريف سنة ٨٩٢ م لهجوم اسطولين من اساطيل الدانيين رسا احدهما جنوبي دوفر ورسا الاسطول الثاني عند ملتون في الجزء الشمالي من كنت . وسرعان ما ابدى الدانيون نشاطا كبيرا في مهاجمة الجهات القريبة ، ولكن الفرد واجههم واجبرهم على الانسحاب وبعد ذلك لم نعد نسمع عن اغارات اخرى خارجية قام بها الدانيون على انكلترا طيلة بقية عهد ألفرد ، وإن ظل الدانيون المقيمون في انجليا الشرقية ونور ثمبريا يقومون بكثير من اعمال القرصنة ، الامر الذي دفع الفرد الى توجيه نشاطه نحو بناء اسطول قوي استغله في دفع خطر الدانيين وانزال عدة ضربات بهم .

وعندما توفي ألفرد سنة ٨٩٩ م اخذ حلفاؤه يغزون اراضي الدانيين تدريجيا حتى انتهى الامر سنة ٩٥٤ بتوحيد انكلترا كلها تحت حكم ملك وسكس الذي اصبح يستحق لقب ملك انكلترا في التاريخ ، على أن ملوك انكلترا في الخمسين سنة التالية لم يكونوا على شيء من المقدرة والكفاية ، مما عرض البلاد مرة اخرى لخطر موجة جديدة من موجات الفايكنغ ، وفي هذه المرة لم يأت الدانيون الى انكلترا على هيئة جماعات متفرقة ، وانما جاؤوا في صورة أمة مترابطة ، حتى اصبح كانوت ابن ملك الدانمرك والنروج ملكا على انكلترا (١٠١٦ ـ ١٠٣٠) ولم يستطع اصحاب الحق الشرعي في عرش انكلترا من البيت السكسوني استرداد عرشهم الا سنة ١٠٤٢ عندما تولى الحكم ادوارد الثالث (١٠٤٢ ـ ١٠٦٦) الذي عرف بنزعته الدينية القوية حتى اكتسب لقب « المعترف » في التاريخ ، وقد قضى ادوارد المعترف هذا شبابه منفيا في بلاط قريبه دوق نورماندي مما جعله يتاثر الى حد كبير بالاراء والاتجاهات النورماندية ، ومهما يكن من امر فان وليم دوق نورماندي ادعى انه صاحب الحق الشرعي في بلاط انكلترا ، وكان ذلك بعد وفاة ادوارد المعترف سنة ١٠٦٦ م

وهنا نلاحظ ان البابوية ساندت وليم النورماندي في اطماعه، بسبب غضب البابا من السكسون الذين طردوا رئيس اساقفة كانتبري النورماندي على الرغم من انه كان يحمل تفويضا من البابوية ، وبذلك استطاع وليم النورماندي ان ينزل قواته على الشاطيء الجنوبي الشرقي لانكلترا وهزم السكسون في موقعة هينك سنة ١٠٦٦ م وبذلك نجح وليم في فتح انكلترا مما اكسبه لقب الفاتح في التاريخ الاوربي كما استطاع توحيد نورماندي وانكلترا تحت حكمه .

غزوات الفايكنغ لايرلندا :

أما ايرلندا فقد تأثرت اكثر من غيرها في المرحلة الاولى من

مراحل اغارات الفايكنغ ، اذ عجز ملوكها عن حماية رعاياهم ، في وقت كانت فيه مدن الجزيرة واديرتها مكشوفة دون اسوار حجرية تحميها وتدفع عنها شر المغيرين ، وهكذا أخذ الفايكنغ يواصلون اغارتهم على ايرلندا في أواخر القرن الثامن ، حتى تحولت هذه الاغارات الى نوع من الاستقرار في الجزيرة في اوائل القرن التاسع.

واذا كانت ايرلندا قد تعرضت لاغارات الفايكنغ في الوقت نفسه الذي واجهت فيه انكلترا غزواتهم ، الا أن مصير كل من البلدين اختلف عن الآخر ، ذلك ان الفايكنغ داروا حول الشاطيء الغربي لاسكتلندا وغزوا جزيرة سكاي قرب الشاطيء سنة ٧٩٥ م كما هاجموا جزيرة مان ـ بين ايرلندا وانكلترا ـ سنة ٧٩٣ م أما جزيرة ايونا قرب شاطيء اسكتلندا الغربي فقد نهبوها سنة ٨٠٢ ثم سنة ٨٠٦ ظهر الفايكنغ قرب شاطيء ايرلندا الشمالية الغربية عند سيليجو ثم شقوا طريقهم داخل البلاد حتى وصلوا وسكنوا في أواسط البلاد . وفي سنة ٨١١ هاجموا مذستر في جنوب غرب الجزيرة ، كما نهبوا شبه جزيرة هوث ـ بجوار دبلن ـ وغيرها من الجزر الصغيرة القريبة سنة ٨٢١.

وهكذا يبدو لنا من هذا العرض السريع أن اساطيل الفايكنغ احاطت بايرلندا احاطة تامة في الربع الاول من القرن التاسع ، بل لم تكد تحل سنة ٨٣٤ إلا وكان الفايكنغ قد اوغلوا داخل الجزيرة بحيث لم تنج ناحية من هجماتهم . وعندئذ لم يعد الفايكنغ يقومون بالغارات الفردية وانما اخذوا يهاجمون الجزيرة باساطيل كبرى ، متخذين من خلجانها وموانيها العديدة مراكز ينفذون منها الى الداخل .

ويبدو أن المقاومة العنيفة التي ابدتها القبائل الايرلندية حالت دون استلاء الفايكنغ على الجزيرة كلها ، فقنعوا باقامة مراكز لهم حول خلجان الجزيرة ومصبات انهارها . وقد حصن الفايكنغ هذه المراكز واقاموا فيها القلاع ، وعن هذا الطريق ظهرت اهمية دبلن ، أما المناطق الداخلية فقد اكتفى الفايكنغ بنهبها ولاسيما الاديرة التي

تعرضت لكثير من مظاهر التدمير ، مما جعل كثيرا من رهبانها يؤثرون الفرار الى أديرة فرنسا وفلاندرز والمانيا ، ويلاحظ أن الغارات الاولى التي تعرضت لها انكلترا وايرلندا ، حتى منتصف القرن التاسع ، قامت بها عناصر من الشماليين النرويجيين ، لامن الدانيين . الذين منذ ذلك الوقت اخذت غاراتهم تتخذ طابعا عنيفا حتى دخلوا في صراع عنيف مع الشماليين النرويجيين الذين سبقوهم الى الجزيرة ، واشتد النزاع في ايرلندا بين الدانيين والنرويجيين الشماليين ، وحاول انذاك الايرلنديون حماية انفسهم من خطر الفريقيين ، مما أوقع الجزيرة في حالة شاملة من الفوضى ، ومع هذا ظل الايرلنديون يقاومون حتى حافظوا على شخصيتهم ، ثم تمكنوا من اذابة عناصر الفايكنغ التي استقرت في جزيرتهم .

الفايكنغ في الجزر الشمالية:

على أن توسع الفايكنغ في الاتجاه الغربي لم يقتصر على انكلترا وايرلندا وشواطيء اسكوتلندا والامبراطورية الفرنجية ، وانما شمل ايضا الجزر الصغيرة القريبة من تلك البلاد .

فضلا عن أن النروجيين اتجهوا ـ بحكم موقعهم الجغرافي ـ اتجاها شماليا غربيا ، أي نحو إيسلاند ، ومع الايام هاجر العديد من النرويجيين ومعهم أتباعهم الى ايسلاند ليعيشوا فيها ، ثم لم يلبثوا أن اتجهوا غربا حتى وصلوا غرينلاند ثم إلى الشواطيء الشمالية الغربية لامريكا وهكذا اصبحت غرينلاند مستعمرة غنية تعج بالشماليين الذين نزحوا اليها من النرويج وايسلاندا فعمروها وشيدوا بها الكنائس .

توسع السويديين شرقا:

إذا كان هناك جدل جول نصيب كل من النرويجيين والدانيين في نشاط الفايكنغ ، فاننا لانصادف خلافا في الراي عند دراسة حركة

توسع السويديين الذين اتجه معظمهم شرقا ، حقيقة انه يفهم من بعض المصادر أن السويديين ترددوا ـ هم بدورهم ـ على انكلترا وغيرها من بلاد الغرب ولكن هذه الاغارات كانت من النوع الفردي ، ولاتعبر بأي حال عن النشاط الاجتماعي للسويديين ، وثمة مظهر آخر امتازت به حركة توسع السويديين شرقا ، وهو أن هذه الحركة قامت على اساس التغلغل السلمي الذي اعتمد على النشاط التجاري ، لاعلى اساس الغزو الحربي والنهب والتدمير ، وهي الصفات التي امتازت بها غزوات النرويجيين والدانيين في الغرب .

وكان الميدان الرئيسي لتوسع السويديين ونشاطهم في سهول اوربا الجنوبية الشرقية . وفي هذه السهول عرف السويديون باسم « الروس » وهو لفظ يعني « النوتية او البحارة » أطلقه الافار والسلاف على هذه العناصر الشمالية التي تغلغلت في بلادهم .

وكان الافار والسلاف يحتكرون الطرق التجارية في شرق اوربا ، لجلب الرقيق والفراء وبيعها الى تجار المسلمين في القوقاز أو التجار المسيحيين في القسطنطينية ، ولكن قوة الافار كانت قد انهارت في القرن التاسع ، الامر الذي مهد الطريق أمام العناصر الشمالية من السويديين ليحلوا محلهم ويثبتوا اقدامهم في حوض نهر الدنيبر حتى وصلوا الى البحر الأسود ، وهكذا سيطر هؤلاء السويديون أو الروس على طرق التجارة بين البحرين البلطيكي والأسود مما ساعدهم على تأسيس دولة لأنفسهم في هذا الجزء الشرقي من أوربا ، ذلك ان الروس اسسوا عدة مدن ، لتحكم كل مدينة منها في المنطقة القريبة التي أحاطت بها والتي سكنتها قبائل مختلفة من السلاف ، وكان لكل مدينة حكومتها الذاتية ومجالسها وموظفوها . وقد فكرت كل منها في حماية نفسها وحماية تجارتها ، فلجات الى تأليف جيوش صغيرة ، على رأس كل جيش أمير يقوم ايضا بجمع الضرائب فضلا عن تمتعه ببعض الاختصاصات الادارية والقضائية ، وكان أن حدث أن استولى احد الزعماء الروس ـ ويدعى روريك ـ على مدينة كييف ، وبذلك نشات دوقية

كييف العظيمة لتكون مركزا كبيرا للفايكنغ في شرق اوربا ، كما كانت نورماندي مركزا لهم في غربها ، على انه اذا كانت دوقية نورماندي قد صادفت مقاومة عنيفة حالت دون توسعها في فرنسا ، فان دوقية كييف استطاعت على العكس من ذلك أن تتسع بسرعة فائقة ، وان تفرض سيطرتها المباشرة - وغير المباشرة - على كثير من القبائل والشعوب القاطنة في سهول شرق أوربا . ويقال أنه بلغ من سرعة توسع كييف أن اصبح بها في الربع الاول من القرن الحادي عشر ثمانية اسواق ، كما كانت لها علاقات تجارية مع البولنديين والهنغاريين والالمان ، فضلا عن علاقتها مع القسطنطينية وبغداد ومازالت لدينا بعض نصوص المعاهدات التجارية التي ترجع الى النصف الأول من القرن العاشر بين الروس من جهة والدولة البيزنطية من جهة أخرى ، وهي تثبت أن هؤلاء الروس كانوا يحضرون الفراء والعبيد الى القسطنطينية ليستبدلوا بها الحرير والمصنوعات وغيرها من لوازم الترف. وربما كان اوضح ما في هذه المعاهدات ان الموقعين عليها من الروس حملوا اسماء سويدية . على أن علاقة الروس بالدولة البيزنطية لم تظل علاقة تجارية سلمية على طول الخط ، فقد كانت تغلب عليهم بين حين واخر نزعتهم نحو الحرب والقتال مما دفعهم الى الاغارة على الدولة البيزنطية وعاصمتها اكثر من مرة .

مما دفع الامبراطورية الى السعي للتفاهم مع الروس واقامة العلاقة بين الطرفين على اسس سليمة ، وكان ان تم التفاهم فعلا حوالي منتصف القرن العاشر ومن ثم اخذت الدولة البيزنطية تستخدم هؤلاء الروس السويديين في البحر لحسابها حيث عرفوا بخبرتهم ومهارتهم . وهكذا أدرك الروس مرة أخرى أن التجارة أربح لهم من الحرب ، فأخذوا يرسلون سفنهم كل ربيع محملة بالفراء والقنب والشمع والقار والعنبر والرقيق لتعود هذه السفن من القسطنطينية محملة بحاصلات الشرق كالحرير والتوابل والبخور والمجوهرات . أما عن علاقة الروس مع بغداد والمسلمين فتشهد على نشاطها كثرة المسكوكات العربية التي عثر عليها في

السويد وفي روسيا ، ومهما يكن من أمر فان هؤلاء الروس السويديين لم يلبثوا أن ذابوا وسط المحيط السلافي الكبير الذي عاشوا وسطه ، بحيث لم يكد ينتصف القرن الحادي عشر إلا كان الروس قد انطبعوا بالطابع السلافي العام .

ولم يقتصر نشاط الفايكنغ على دائرة البلاد السالف ذكرها ، إنما امتد هذا النشاط الى كثير من البلاد المجاورة فأغاروا كما سلفت الاشارة على شواطيء الاندلس الاسلامية وتعرضت لشبونة وقادس واشبيلية بوجه خاص لعيثهم فضلا عن بعض بلاد المغرب الساحلية . وعلى الرغم من المقاومة الحازمة التي اظهرها الاهالي في صد الغزاة ـ الذين اسماهم المسلمون باسم المجوس ـ الا أنه يبدو أن اغاراتهم استمرت بشكل خطير مما دفع عبد الرحمن الثاني الى ارسال سفارة الى ملك الفايكنغ ، ومع هذا لم يتوقف هؤلاء عن غاراتهم حيث عبروا مضيق جبل طارق وأغاروا على بعض بلاد المغرب وقراها ، كما أغاروا على شواطيء الاندلس الشرقية حتى وصلوا جزر البليار ،ثم اغاروا على مدن اقليم بروفانس ، وبعد هذا على شواطيء الجزر الواقعة عند مصب نهر الرون ،وايطاليا ، وهكذا استطاع الفايكنغ في النصف الثاني من القرن التاسع الاحاطة بأوربا احاطة شبه تامة بعد أن وصل السويديون الروس الى القسطنطينية شرقا ووصل الفايكنغ الغربيون الى شواطيء ايطاليا من الجهة المقابلة .

حضارة الفايكنغ:

لم يكن الفايكنغ برارة بكل معاني الكلمة ، لأنهم اظهروا مزيجا عجيبا من البدائية والنزعة الحضارية فهم وإن ظلوا محتفظين ببعض تقاليدهم البدائية تفوقوا على كثير من شعوب أوربا المجاورة في بعض نواحي النشاط البشري ، وبخاصة الحرب والتجارة والتنظيم الاجتماعي . على أن الخشونة البدائية التي عرف بها الفايكنغ في أول الأمر لم تلبث أن اخذت تتعدل نتيجة لانتشار

المسيحية تدريجيا بينهم ، مما ترتب على ذلك تهذيب طباعهم بعض الشيء .

ويرجح ان أول معرفة الفايكنغ بالمسيحية جاءت عن طريق علاقتهم التجارية مع الفريزيين حتى أخذت البعثات التبشيرية تتردد على سكندنافية .والدانمرك منذ اوائل القرن الثامن وبعد ذلك بقليل عمل لويس التقي على نشر المسيحية بين الفايكنغ بالطرق السلمية وذهبت بعض البعثات التبشيرية الى البلاد الشمالية . واخذت المسيحية تنتشر تدريجيا على حساب الوثنية وليس هناك من شك في ان ازدهار المسيحية بين هذه الشعوب ترك اثرا واضحا على مستقبل اوربا وتاريخها ، اذ يمكن الوقوف على اهمية هذا الاثر لو تصورنا ان السويديين الروس الذين استقروا في شرق اوربا فضلوا ديانة جيرانهم المسلمين في القوقاز على ديانة جيرانهم المسيحيين في الدولة البيزنطية ، وفي الحقيقة كانت اوربا بأكملها مهيأة لتلقي الاسلام ، ولاشك ان ذلك لو حدث لتغير وجه التاريخ الانساني من كل جانب نحو الافضل .

وقد امتازت حضارة الفايكنغ في الجانب المادي بالثروة والفخامة ، فقد جمعوا الحلي وادوات الزينة والسيوف ذات المقابض الثمينة ، وغيرها من الاشياء التي فاضت بها مقابرهم ، وليس هناك من شك في ان مصدر هذه الثروة كان النهب والسلب في اغاراتهم من جهة ، كما كان النشاط التجاري من جهة اخرى ، ومن الواضح ان الفايكنغ تركوا اثرا واضحا في كل بلد استقروا فيه وبخاصة في ايرلندا وانكلترا وملحقاتها الطبيعية ، واذا كانت العناصر الاولية لحضارة الفايكنغ قد أخذت تتلاشى تدريجيا من البلاد التي نزحوا اليها واستقروا فيها ، فان هذه العناصر قدر لها البقاء في اقصى الغرب – اي في ايرلاندا وغرينلاند – حيث ازدهرت حضارة الفايكنغ واصبح تراثهم مصدرا لتطور مبتكر يختلف عن اي تطور حضاري اخر في القارة الاوربية ، حقيقة ان حضارة الفايكنغ في تلك الجهات لم تكن خالصة ، اذ امتزجت بحضارة ايرلندا الكلتية

نتيجة لهجرة كثيرة من الكلت الايرلنديين اليها ، ولكننا مع ذلك يمكننا تمييز عناصر الحضارة الشمالية جلية واضحة وقد بلغ التقدم الحضاري في غرينلاند ، بعد استقرار الشماليين فيها ان اديرتها في القرن الثاني عشر كانت تستخدم انابيب المياه الدافئة في تدفئة داخل الاديرة، وقد استمدت هذه الانابيب مياهها من ينبوع دافىء طبيعي . هذا فضلا عن النشاط التجاري الواسع الذي قام به اهالي غرينلاند في الميدان الاقتصادي اذ اخذوا يصدرون الاسماك والفراء والزيت الى البلاد القريبة .

اما ميدان الادب فان المجموعة الضخمة من اساطير الساغات واشعار « الادات » تعد خير مايدل على التقدم الادبي وبخاصة في ايرلاندا .

والساغات هي اساطير نثرية تمتاز بطابعها الواقعي واتزانها واستقامة نظرتها الى الحياة والطبيعة الانسانية ، واما الادات فهي مقطوعات منظومة تمثل نوعا بدائيا من الشعر ، ولكنها تمتاز ايضا ببروز الجانب الخلقي والنظرة الواقعية الى الحياة ، واذا كانت هذه الاشعار تنطوي على شيء من الخشونة والبربرية ، الا انها تعبر تعبيرا ساميا عن روح البطولة ، كما تحرص على ابراز الغرض الاسمى الذي يسعى اليه البطل ، وهكذا يرجع الفضل الى الفايكنغ عندما انتجت جزر اوربا الشمالية المقفرة حضارة وادبا عد من اعظم ماانتجته اوربا في العصور الوسطى .

اسرة كابية في فرنسا

من الواضح ان الغزوات التي تعرضت لها اوربا في القرنين التاسع والعاشر وماترتب عليها من انهيار السلطة الملكية ، وماجرى من المنازعات بين الامراء والحكام ، تمخضت كلها في النهاية عن فوضى شديدة عمت بلاد غرب اوربا .

وقد دفعت هذه الفوضى صغار الملاك الى البحث عن قوة تحميهم وتذود عنهم ، فلم يجدوا اثرا لقوة الملك او لنفوذ السلطة المركزية ، مما اضطرهم الى الارتباط بالكونت او الامير المحلي لحمايتهم ، وهكذا اخذ عامة الناس وصغار الملاك يرتبطون بمن هم اقوى من الامراء وكبار الملاك في ظل نظام من الحقوق والواجبات المتبادلة كوسيلة وحيدة لحماية ارواحهم من الاخطار والقلاقل التي عذبت المجتمع الغربي ، وبعبارة اخرى فان هؤلاء الضعفاء او المستضعفين قبلوا ان يعيشوا في حال من الهوان والمغارم مقابل قيام الاقطاعيين بحمايتهم والذود عنهم ، في حين لم تتعد سلطة الملوك الفعلية دائرة املاكهم وضياعهم الخاصة ، شأنهم شأن اي امير آخر من الامراء الاقطاعيين .

وهذا الوضع من التنظيم السياسي والاجتماعي هو الذي ظلت عليه فرنسا في القرن العاشر والحادي عشر والثاني عشر ، ففرنسا ذاتها هي الدولة التي بلغت فيها الفوضى ذروتها منذ القرن التاسع ، حتى اصبح من الضروري الاستعانة بنظام جديد يضمن للناس ارواحهم ، وهكذا لم يكد ينتهي القرن العاشر ، الا وكان النظام الاقطاعي قد وطد اقدامه فيها وتناقصت سلطة الدولة المركزية تناقصا واضحا ، ومن الثابت ان فرنسا ـ وهي الجزء الغربي من الامبراطورية الكارولنجية ـ اختلفت عن المانيا ـ الجزء الشرقي من هذه الامبراطورية ـ لأن الاولى كانت في سالف الزمن جزءاً من العالم الروماني حتى دخلت تحت حكم الجرمان وقد ظلت فرنسا تحت حكم الفرنجة مقسمة الى اقسام ادارية ـ اوكونتيات ـ تتبع حدود الاسقفيات ويحكم كلا منها نائبا عن الملك الميروفنجي او الكارولنجي ، وهكذا ظل الوضع حتى تحطمت السلطة الملكية في فرنسا ، وعندئذ لم يبق قوة تحل محلها سوى قوى الحكام المحليين من الكونتات وكبار الملاك .

ولاشك في ان الحقيقة التاريخية الكبرى التي امتاز بها تاريخ فرنسا في القرن العاشر هي سقوط البيت الكارولنجي وقيام اسرة

كابية وتسلمها للحكم ، ذلك انه حدث ـ كما سلفت الاشارة ـ عندما عزل شارل سنة ٨٨٧ م ان اختاروا اودو كونت باريس ، بعدما ابداه من شجاعة في الدفاع عن باريس اثناء حصار الفايكنغ لها . على انه يبدو ان ذكرى شارلمان وعظمته كانت تدفع المعاصرين الى الاخلاص للبيت الكارولنجي والتمسك بحكمه ، الامر الذي اثار نزاعا طويلا ـ استمر قرنا من الزمان ـ بين البيت الكارولنجي والبيت الباريسي حول الاستئثار بحكم فرنسا ، وهنا نشير الى عدم صحة مايردده كثير من المؤرخين من ان الكارولنجيين الاواخر امتازوا بالضعف وعدم الكفاية ، الامر الذي ادى الى ضياع الملك من ايديهم فالواقع انهم كانوا على قدر كاف من القدرة ، وبذلوا قصارى جهدهم للاحتفاظ بملكهم ، ولكن كان ينقصهم المال اللازم . ذلك ان مصدر قوة شارلمان وثروته الشخصية كان بلاد حوض الراين ، ولم تكن له ضياع في الجزء الغربي من امبراطوريته سوى القليل ، وهو الذي اصبح من نصيب سلالة ملوك فرنسا ، وهذا هو السبب في ان ملوك الجزء الغربي من الامبراطورية ـ اي فرنسا ـ ظلوا دائما في فقر وحاجة الى المال حتى زوال البيت الكارولنجي .

وقد حدث اثناء حوادث التنافس والنزاع بين البيت الكارولنجي والبيت الباريسي ان اختير احد ابناء البيت الكارولنجي ملكا ـ وهو شارل البسيط ٨٩٣ ـ ٩٢٣ ولم يرض ذلك روبرت اخو اود ووريثه ، فثار ضد شارل ثورة لم تنجح وكان شارل البسيط اكتسب حليفا قويا عندما منح الفايكنغ اقليم نورماندي، ومع ذلك ، فان السنوات الاخيرة من حكم شارل كانت مليئة بالمتاعب الشديدة التي سببها له روبرت كونت باريس ، وقد توج روبرت ملكا سنة ٩٢٢ م ولكنه قتل في العام التالي تاركا ابنه الصغير هيو العظيم ليحل محله ، اما شارل البسيط فقد خلفه ابنه لويس الرابع (٩٣٦ ـ ٩٥٤) الذي كان محاربا قويا وسياسيا بارعا ، فتزوج من اخت اوتو العظيم ليضمن مساعدة المانيا انما سرعان ماانكشف لويس الرابع انه اضعف من ان يقف امام هيو العظيم ، فاضطر الى

مسالمته ، وهكذا نجح هيو العظيم ، ومن بعده هيو الملقب كابيه في السيطرة على معظم انحاء فرنسا قبل مجيء سنة ٩٨٦ م وهي السنة التي توفي فيها لوثر بن لويس الرابع ، ولم تلبث ان جاءت وفاة لويس الخامس (٩٨٦ ـ ٩٨٧) ابن لوثر ـ دون ان يترك ابنايخلفه ، وبذلك طويت صفحة تاريخ البيت الكارولونجي ، وتم تتويج هيوكابية ملكا على فرنسا في عام ٩٨٧ وهو العام الذي شهد وفاة لويس الخامس ، ولم يعن قيام حكم اسرة كابيه اكثر من حلول اسرة حاكمة محل اسرة اخرى ، وحين ورث ال كابية الكارولونجيين ورثوا حقوقهم ايضا ،انما ظلوا بالوقت نفسه السادة الاول بين بيوت السادات من الاقطاعيين ، وفي الحقيقة يعد انتصار ال كابية انتصارا للامراء الاقطاعيين على الكارولونجيين ، وهكذا كانت مملكة فرنسا عبارة عن تجمع لعدد كبير من الاقطاعيات لكل منها نظامها وقواها ومطامحها .

لقد نالت اسرة كابية اسمها من هيو الكبير (٩٨٧ ـ ٩٩٦) وقام هذا الاقطاعي الاول بتتويج ابنه روبرت الثاني قبل وفاته ، وسهل هذا انتقال الملك الى روبرت (٩٩٦ ـ ١٠٣١) ثم من بعده الى ابنه هنري الاول (١٠٣١ ـ ١٠٦٠) ثم الى حفيده فيليب الاول (١٠٦٠ ـ ١١٠٨) ، وكان هؤلاء الاربعة ملوكا اسميين لفرنسا ، وجاء بعد فيليب الاول ابنه لويس السادس (١١٠٨ ـ ١١٣٧) ، وكانت الحروب الصليبية قد قامت بحيث باتت مسؤولية فرنسا الاولى ، واستطاع لويس ان يقوي سلطانه على الاقطاعيين ، وبعد لويس السادس جاء لويس السابع (١١٣٧ ـ ١١٨٠) ، وشارك هذا الملك فيما يعرف باسم الحملة الصليبية الثانية ومعه زوجته اليانور ، وستمر بنا انباء هذه الحملة بتفاصيل مفيدة .

وبعد لويس السابع جاء فيليب اوغسطس ، وهذا الملك ايضا شارك في الحملة الصليبية الثالثة التي قامت اثر معركة حطين وتحرير صلاح الدين للقدس سنة ١١٨٧ م ، وسنقرا اخبار هذه الحملة مفصلة في نصوص كتابنا .

وخلف لويس السابع ابنه لويس الثامن (١٢٢٣ ـ ١٢٢٦ م) ، وهذا الملك لم يعمر بالحكم طويلا كما انه لم يترك اثـارا واسـعة ، وابعد منه شهرة ابنه لويس التاسع (١٢٢٦ ـ ١٢٧٠ م)٠

لانه خاض اخرا لحملات الصليبية واسر اولا في مصر ، ثـم عاصر قيام دولة المماليك وعاش بعض الوقت في فلسطين ، وبعد عودته الى بلاده بفترة قاد حملة جديدة رست على شواطىء تونس وهناك صدت قواته ولاقى حتفه .

obeikandl.com